مجلة
روايات أحلام

١٧

# غدًا يعود الماضي

www.elromancia.com

مرمورية

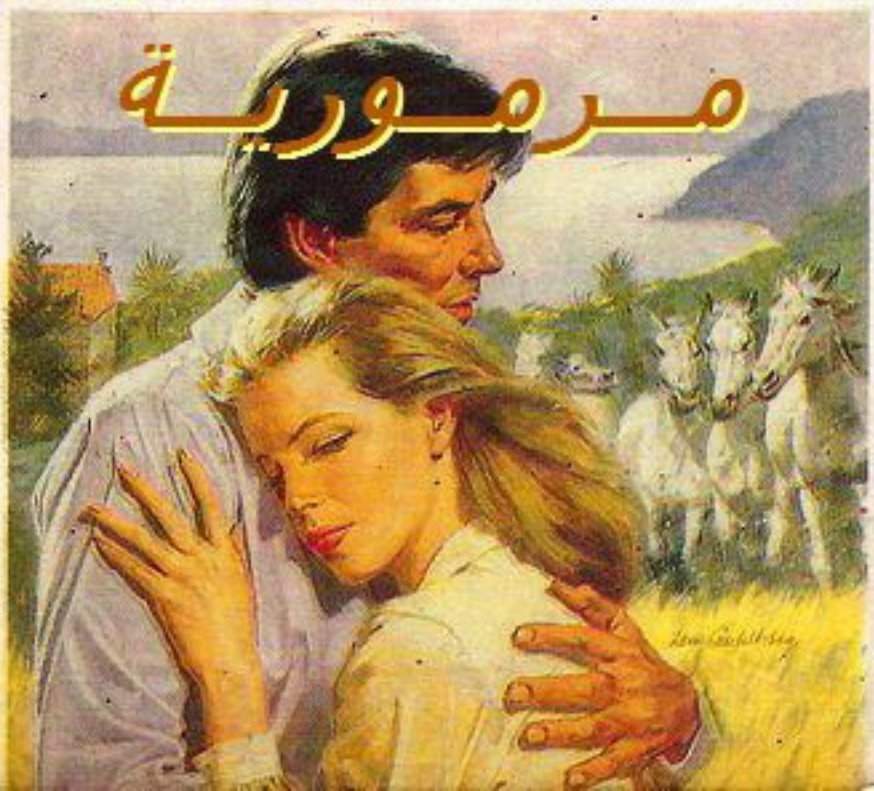

# مجلة روايات أحلام

## غدا يعود الماضي

الحب هو شخصان لا يمكن أن يعيشا مفترقين. هو اكتشاف أن وحشة الوحدة انتهت وأنهما من الآن فصاعداً سيتشاركان السعادة معاً.

حملها على حصانه الأسود إلى قصره بعد أن كانت ضائعة في خطر داهم. قال لها: «ادّعي أنك زوجتي ولك ما تشائين من مال»، والسبب امرأة كانت زوجته التي اختفت في ما مضى، والآن تريد العودة إلى عرش قلبه.

كانت ترى فيه عظمة الأيام وفي كل ما يحيط به، في قصره القديم كالزمن، هالة تتسلل إليها وتعصف بقلبها.

هل تستطيع سبيل الرقيقة مواجهة العاصفة المنبعثة منه؟ وهل لها القدرة على مواجهة تلك المرأة النارية العائدة بعد غياب؟


| | | | |
|---|---|---|---|
| لبنان ١٥٠٠ ل.ل. | الإمارات ٦ د. | مصر ٣ ج. | ليبيا ١ د. |
| سوريا ٥٠ ل.س. | قطر ٦٠٠ ر. | المغرب ١٥ د. | اليمن |
| الأردن ١ د. | البحرين ٦٠٠ ف. | تونس ٥٠٠ د. | السودان |
| الكويت ٥٠٠ ف. | السعودية ٧ ر. | عُمان ٦٠٠ ب. | العراق |

# ١ ـ فارس وفرس

أدارت سيبيل مقود السيارة، فالتفت عند المنحنى بنعومة... وفجأة اصطدم الإطار القريب منها بشيء ما... ولم تدر بنفسها إلا وهي تتصارع مع مقود السيارة تجنباً للانزلاق فوق حافة الصخور بعد أن انفجر الإطار.

جلست في مكانها، مسندة رأسها إلى المقود، خافقة القلب تكاد لا تصدق أنها لم تنزلق عن حافة الطريق الضيقة، إلى الصخور الضارب عندها الموج الأبيض، المرسل رذاذاً من الماء اللامع.

تنفست الصعداء... عبر البحر كانت أشعة حمراء تنتشر منذرة بمغيب الشمس، ودنو الليل. حدقت في المنظر... منظر حي يمتزج فيه الأزرق والأخضر والناري. باعثاً إليها سعادة لأنها بقيت حية.

إنها الآن في قلب مقاطعة «الاند» في طريقها من بوردو على ساحل خليج كاسكونيا إلى «بيارتيس»... وهذا كل ما تعرفه. فعندما غادرت المقهى الأخير الذي تناولت فيه الغداء، تركت، بكل غباء، خريطتها على الطاولة... فكان إن سارت لساعات بسيارتها على غير هدى، معتمدة على الحدس. فهي متجهة لاستلام وظيفة سائقة ومرافقة لسيدة تدعى السيدة ايلارد، صديقة جدتها. فسيبيل بيكويت الآن عاطلة عن العمل، ولكنها كمعظم البشر بحاجة إلى أن تطعم نفسها وتكسو جسدها... وهكذا عندما حثتها الجدة اوديت،

قبلت بالوظيفة إلى أن تسنح لها فرصة العودة إلى عملها كسكرتيرة.

كانت الجدة اوديت تدعوها بالحالمة، وسيبيل أول من يوافق على هذه التسمية فهي لم تنكر قطُّ ميلها إلى الرومانسية بدل الواقعية. حتى ورطتها الحالية لا يمكن لها أن تفسد الجلال والسحر اللذان تحسهما الآن والشمس تنزلق خلف الأفق ناثرة لونها البرونزي على سطح مياه المحيط الأطلسي.

نظرت حولها، فشاهدت الظلال المعتمة تبدأ بالزحف فوق الأراضي الريفية... قريباً سيحل الظلام... وما من جدوى من الجلوس هنا في سيارة معطلة، ليس فيها إطار إضافي...

عندما تسللت من مقعدها، ونظرت إلى الإطار المعطوب، توضح لها أن لا أمل في تحريك السيارة... وعليها أن تهجرها لتسعى إلى مكان تلجأ فيه هذه الليلة... هناك منازل على الطريق وبما أنها ابنة ريف فهي تعرف أن أهل الريف يميلون للضيافة أكثر من أهل المدن.

تناولت سيبيل من السيارة سترتها الجلدية وحقيبتها الصغيرة وانطلقت غير خائفة من الليل، فنشأتها في الريف جعلتها تعرف أن في الحقول أماناً أكثر مما هو موجود في شوارع المدينة. من حسن حظها أنها وجدت مشعلاً يعمل على البطارية... تبعث الشعاع الرفيع ما لا يقل عن عشرين دقيقة. وكانت تحس برائحة البحر في أنفها، وتسمع المد وهو يضرب أقدام الصخور وأطراف الرمال على الشاطىء. فجأة برد الهواء إلى درجة الصقيع، فرفعت ياقة السترة حول عنقها، ومع ذلك فقد أحست بالارتجاف...

آه... كم سترحب الآن بكوب ساخن من الشاي أو القهوة، وعدة سندويشات من الجبن والمخلل...

هل هذا ضوء؟

وقفت جامدة تحملق في العتمة فوق الجدار الصخري البدائي



الذي تسير إلى جانبه... ولمع الضوء ثانية من بعيد... فاندفعت متهورة تصعد الجدار رامية الحقيبة خلفها ورغم علمها بأن مثل هذه الأماكن مليئة بالمستنقعات إلا أنها بدأت تسير عبر الحقول منجذبة إلى ذلك الوميض وسط العتمة.

أصبحت النجوم في كبد السماء منتشرة، فلم تشعر سيبيل بالخوف من وجودها في أرض غريبة. وفجأة، أخذ المشعل يرمش دلالة على دنو فراغ شحنة البطارية... بينما كانت تشعر بالاحباط، حركت الريح شجرة عبر الحقل فشاهدت بوضوح حدود نافذة... نافذة مرتفعة بيضاوية الشكل تشع بنور أصفر في الظلام.

فتنفست الصعداء: شكراً لله! وأكملت طريقها عبر العشب المرتفع حتى ركبتها نحو الضوء.

إنه ضوء مبارك... يعد بكوب من شراب ساخن، يتصاعد البخار منه، وإن كانت محظوظة فستجد في هذا البيت هاتفاً تستطيع منه الاتصال بالسيدة ايلارد، لتعلمها بتعطل سيارتها وبتأخير وصولها حتى الغد.

لكن الضوء في الليل قد يبدو قريباً، وهو في الواقع على مسافة بعيدة. سيبيل لم تخض في أرض ريفية منذ سنوات تعلمت خلالها فنون السكرتاريا حيث عملت في عدة شركات صغيرة، لم تثبت في أي منها. أثناء السير أحست بعضلة في ربلة ساقها تشتد، فراحت تنقل حقيبتها بقلق من يد إلى أخرى. منذ ان انطفأ المشعل، بدأت تحس بالعزلة، وبابتعاد الأشجار عنها، تلك الأشجار التي تتلوى وكأنها سحرة يقومون بتعويذات: «يا شبح الغول لا تختارني، بل اختر فتاة بدينة تأكل كثيراً» أغنية طالما رددتها مع رفيقاتها عندما كنّ صغيرات.

فجأة سمعت صوتاً لا يشبه صوت مذعور أو أرنب يقفز من بين العشب... عندها قفز قلبها من مكانه وهي تستدير مذهولة...

فدوى الصوت من العتمة ليصبح فوقها تماماً.

- هووو... توقف يا فتى!

رفع الحصان الضخم قائمتيه في الهواء فأحست سيبيل بلفحة حرارة من جسد الحيوان.

- يا للشيطان...

نظر إليها الراكب ذا الحاجبين السوداوين والشعر المشعث بفعل الهواء فوق جبهته العريضة... خوفها منه كان سببه انطفاء المشعل نهائياً بعد أن أعطى شعلة واحدة ضعيفة على وجهه... ثم عمّ الظلام الدامس مع أن عينيه بدتا بارقتين. صاح بها:

- ماذا تفعلين هنا؟ لقد أرعبت حصاني.

فشهقت:

- أ... أنت من أرعبني... حتى الموت!

- ماذا تفعلين هنا في مثل هذا الوقت من الليل؟ هل أنت ضائعة... يا فتاة؟

- أجل... أنا متجهة إلى ذلك المنزل.

أشارت إلى الناحية التي شاهدت فيها النافذة المضاءة. فقال بخشونة:

- هذا منزلي. برج روميلوس.

- منزلك؟

قالت كلماتها وهي تحس بالخيبة والحذر...

- اهدأ يا فرس! (شد لجام الفرس).

فشخر الحصان وهزّ رأسه مما جعل اللجام يرن...

- أنا أدعى دياغو روميلوس. وأنت فوق أرضي أيتها الشابة. فأنا أملك هذه الأرض كلها والمنزل الذي وراءها.

- دياغو؟

- هذا اسمي منذ الولادة... وليس اسماً اخترعته.



في صوت الرجل، رنة لم تسمعها سيبيل من قبل، كانت تتوقع أن يكون الرجل الاندي مثقفاً نبيلاً، لا كهذا الرجل الذي تعلو نبرة صوته رنة غاضبة، تتوافق مع الحاجبين السوداوين المقوسين فوق العينين غير العاديتين... رنة غريبة، تذكّرها كثيراً بلهجات من لهم دم اسباني اختلط مع الدم الغالي.

قالت سيبيل متسرعة:

- ولكنه يناسبك.

ثم أحست بالحرارة ترتفع من عنقها حتى منبت شعرها. ليس لأنها خجلت بل بسبب الرجل نفسه... فهو يرسل ذبذبات من فوق حصانه الأسود، ذبذبات فيها غموض وسيادة.

- إذن أنت ذاهبة إلى البرج؟ وكيف ضعت في أرضي... هه؟

- كنت أتجه بسيارتي إلى بيارتيس عندما اصطدم الإطار بشيء مزّقه. ولم استطع الجلوس فيها، فقررت أن أجد ملجأ يأويني في هذا الليل. فلمّا شاهدت ضوءاً من تلك النافذة اتجهت نحوه.

فصدرت عنه ضحكة خفيفة.

- لست أدري أكان هذا حكمة منك أم غباء! هل تخافين الخيول؟

- أبداً، فأنا نشأت في الريف، في مزرعة جدي وقد عشت فيها حتى الثامنة عشرة من عمري.

- أي عندما غادرت منزلك سعياً وراء المال والشهرة... هه؟

- وكيف عرفت؟

- هذه أرض السحر، لابد تعرفين هذا؟

- أجل... ولكن...

- إنها مجرد خرافات... أليس هذا ما تفكرين فيه آنسة؟

- أليست كذلك سيد روميلوس؟

- ليس تماماً... ماذا يدفعك إلى بيارتيس؟

- هناك وظيفة بانتظاري.

- فلتنتظر... اعطني يدك، ودوسي على قدمي، وسأرفعك إلى متن الحصان.

- معي حقيبة...

لم تخف من الحصان قدر خوفها من راكبه... إنه يجعلها تحس بأنه أقسى من أن يكون لطيفا. أعادت لها الذاكرة: «يا شبح الغول...» ولكن صوته قطع عليها حبل أفكارها.

- خائفة مني؟ خائفة أن تكوني مشيت في ممر الشيطان، كما يقال في هذا الجزء من البلاد؟

- كيـ... كيف أعرف أن ما ذكرته هو اسمك؟

- بطاقة اعتمادي ليست معي... وإذا أردت اجتياز المسافة حتى البرج ماشية فافعلي، ولكن «فراس» سيوصلك في وقت أسرع، وأتصور أنك تتحرقين شوقاً إلى فنجان شاي.

- بل أكاد أموت لأحتسي هذا. ولكن ماذا عن حقيبتي؟

- ضعيها بين الشجيرات، وفي الصباح تأخذينها... لقد بدأ «فراس» يتوتر، ولن يستسيغ حقيبة تقفز على ظهره.

عرفت أن رده منطقي، ولكن في الحقيبة حاجياتها الليلية. وإذا كانت ستقضي ليلة في البرج...؟

- هل سأخرين عادة كل هذا الوقت لاتخاذ قرار؟ (سألها متوتراً).

- في الحقيبة حاجياتي.

- لا تقلقي على هذا. فمنزلي مليء بالحاجيات وأنا واثق أن بولين يمكنها مدك بما تحتاجين إليه.

تنفست سيبيل الصعداء... بولين! فعلت ما قاله لها بالحقيبة ثم مدت يدها لدياغو روميلوس، وأحست بقبضة اصابعه القوية على يدها.



تراقص «فراس» متراجعاً إلى جانبه، وهي تصعد فوقه، ثم أحست بذراع قوية تشدها بأمان إلى صدر عريض، وخلال لحظة انطلق الحصان بهما قافزاً فوق العشب... وهي تحس بأن «الغول» قد أمسك بها.

قال لها:

- لقد فقدت لسانك فجأة. هل تحسبين أنك تمتطين جواداً مع الشيطان الذي يقال إنه يركب جواداً أسوداً في عتمة ليل الحقول والمستنقعات؟

منذ أن تركت سيبيل مزرعة جدها، عاشت بين أشخاص متمدنين لبقين... ولكن هذا الرجل يبدو وكأنه قادم من زمن آخر. إلا إذا كان ما يحيط به يجعله يبدو على هذا النحو.

- لقد اختطفتني عن الأرض بسرعة، ألم تفعل هذا سيد روميلوس؟

- ولكن لهذا الرد تفسيران يا آنسة، فأيهما تريدين أن أفهم؟

- الصحيح! إذا كنت لا تمانع!

ارتجفت وهي تحس بذراع دياغو تشتد حولها. وقال:

- لماذا بنات المدن نحيلات هكذا؟ لا لحم لهن، لا عجب أن تشعري بالبرد.

- لقد قلت لك سيد روميلوس، أنا لست فتاة مدينية حقاً.

- إذن لقد مضى عليك زمن طويل لم تأكلي فيه حلوى التفاح... ما هو نوع عملك؟

- سكرتيرة!

- ظننتك ممثلة.

- شكراً لك... وهل تعرف الكثيرات منهن؟

- كنت أنظر إليهن دائماً على أنهن متألقات.

- هل تؤمن بالقول للأسود أسود وللأبيض أبيض؟

- أظنها الطريقة الفضلى... هل أنت معتادة على رجال يكذبون عليك ليوصلوك إلى حيث شاؤوا؟

الاحمرار أصبح لهيباً... وفجأة أحست بملامسة جسده، يا له من متعجرف! إنه من الرجال الواثقين المعتدين بأنفسهم الذين لا يحتاجون إلى الكذب أو لإلقاء السحر ليحصلوا على ما يريدون.

تابع ساخراً بعد سكوتها:

- لا تقولي لي إن فتاة المدينة غير معتادة على الصراحة؟ كنت أظن الناس هناك لا يضيعون وقتاً لقلب المدينة إلى بابل أخرى حديثة.

- جزء من المدينة يصبح هكذا... ولكنني أنظر إلى عملي بجدية بعيداً عن اللهو الذي لا أستسيغه.

- آنسة محتشمة وجادة... هه؟ ما اسمك؟

- سيبيل بيكويت. يناديني اصدقائي «سيل».

- ألا تشعرين أننا قد نصبح صديقين.

- من غير الممكن... أليس كذلك؟

- لا يعرف المرء ما هو حظه سيل. ضوء في نافذتي لفت نظرك واستهواك... وستنامين تحت سقفه... أليس كذلك.

- سأبقى ليلة واحدة... فأرجو أن لا تمانع زوجتك في استقبالي دون سابق إنذار.

- زوجتي؟ ماذا تعرفين عن... زوجتي؟

- لا شيء. لقد ذكرت منذ برهة أن اسمها بولين.

- بولين هي مدبرة منزلي التي تبلغ الستين من المعمر. فهل أبدو عجوزاً هكذا؟

أحست بالاضطراب لما عرفته:

- لا... ولكنك بكل تأكيد أكبر من أن تكون دون زوجة.

- وأنت كذلك أيتها الشابة. الفتيات هنا يتزوجن حالما يتعلمن



صنع قالب حلوى شهي، وصنع فراش مريح... فماذا تفعلين... هل تدخرين نفسك لأمير الأحلام؟

- لا يهمني أن تعتبر أن الخير لفتاة أن تطبخ وتنظف وتنجب. فأنا لا أنوي أن أصبح عبدة رجل!

- وماذا إذا وقعت رأساً على عقب في الحب؟ فهذا يحدث للناس، غصباً عنهم، والنساء لسن مستثنيات.

فردت سيبيل:

- أظن الحب خرافة.

فقال دياغو:

- يظهر أنني أوافقك الرأي، هذا إذا كنت تتكلمين عن الحب بين الجنسين... ولكن هناك نوع آخر من الحب يجيء مع ذلك النوع من الاتحاد... الذي يتسبب بوجود ابن أو ابنة.

بينما كان يتفوه بتلك الكلمات وصلا إلى أبواب «برج روميلوس» الحديدية التي تنشق ليبين منها الحقول الواسعة الممتدة على مدى البصر. سار بهما الحصان تحت مصابيح معلقة بالجدار نحو فناء ذي أعمدة ترتفع أمام الأبراج.

إن الضوء الذي شاهدته سيبيل جاء دون ريب من الفناء الخلفي للمنزل فواجهة المنزل رحيبة، لا كما توقعتها أبداً. قال لها دياغو:

- تمسكي بقائمة السرج إلى أن أترجل.

ففعلت وانزلق عن السرج، ثم مد ذراعيه استعداداً لتلقيها بينهما عندما تنزل... لم تقابل سيبيل من قبل رجلاً ضخماً، فيه قساوة كهذه التي تراها.

- تعالي!

لهجة الأمر جعلتها تتصلب... إنه سيد معتاد على اعطاء الأوامر. القانون، والأرض، جعلاه السيد، ولكن سيبيل أحست بميل إلى أن تعصي أوامره... فقالت:

- استطيع تدبر أمري... لو سمحت تراجع قليلاً!

- إذا تراجعت يا انسة، ووجد «فراس» نفسه وحده، مع غريبة تعتلي صهوته فسيرميك فوق هذه الحجارة قبل أن تتفوهي بكلمة... فنفذي ما أطلبه منك!

- لديك طريقة فاتنة في الكلام!

- الفتنة هي لمن لديه الوقت لممارستها. ولست أنوي الوقوف هنا وأنا أراك تترددين بالنزول كقطة عالقة فوق شجرة. والآن... انزلي بساقك وسألتقطك... هيا... لن أوقعك أرضاً... إذا كنت خائفة من هذا.

أدركت أن هذا ما يجب فعله، فقد بدأ «فراس» يتململ، والأرض ليست بعيدة وثابتة مثل دياغو روميلوس. التقطها دون جهد... ثم ضحك:

- كنت أظن أن الفتيات العاملات هن أقل الفتيات خجلاً... أم أن هناك شيئاً بصددي يجعلك ترتجفين؟

- أنا لست أرتجف...

- صحيح؟

شد ذراعه على ظهرها وضمها إلى صدره قصداً!

- أحس بك مرتجفة.

- هذا... لأنني، على بعد أميال من حيث يجب أن أكون... والنساء لا يحببن أن تفسد خططهن.

رد ساخراً:

- هذا صحيح، أوافقك الرأي آنسة بيكويت. لكنني أعتقد أن ما يزيدك ارتجافاً هو جوعك وتوقك لبعض الشاي... هل أبدو ظالماً مخيفاً؟

- من الواضح أنك تحب تنفيذ ما تريد سيد روميلوس. لذلك أرجو أن تتركني!



لم تستطع إيقاف الرجاء من صوتها. كما لم تستطع ايقاف الارتجاف عن ركبتيها. إنها بعيدة مئات الأميال عن بلدها، وهي على وشك الدخول إلى منزل على ما يبدو أن النساء فيه كن يحتجزن قديماً سجينات داخل أسواره. التفتت إليه وهو يقول:

- ألا تتمتعين باقتراب الرجل منك؟ هل أنت مصابة بمثل هذا الخوف؟

فقالت له ببرود:

- أود أن أشير إلى أنك... غريب بالنسبة لي سيد روميلوس.

أحست بالمرارة في صوته وهو يرد:

- ربما الرجال والنساء دائماً غرباء عن بعضهم، وحتى ولو عاشوا معاً... فالقرب ليس بضمانة لعدم إحساس المرء بالوحدة. اؤكد لك هذا يا سيدتي الشابة.

أصبح وجهه قاسياً، كالصخر، بينما انتظرت سيبيل متوترة كي يزيل ذراعيه عن خصرها... فقد بدا لها أن كل عصب في جسدها متوتر بسبب التصاق جسده القوي المتوحش بها.

- أعتقد أنك عندما تقترب من الناس، تسمح لهم بأذيتك.

شكت على الفور في أن شخصاً ما قد آذاه إلى درجة جعلته لا يغفر لأحد.

- تصبحين عرضة للأخطار عندها... هه؟

- أجل.

- أنت محقة سيبيل بيكويت... ولكن من علمك مثل هذه الحقيقة الساخرة؟ هل تعلمت على يد رجل؟

- أجل...

ولكنها لم تزد بأن ما تعلمته جاء من قراءتها للكتب...

هبت نسمة ريح قوية عبر باحة «برج روميلوس» فاقشعرت بشرة سيبيل وتبعثر شعرها. وأحست بإحساس بارد، غريب عندما أبعدها



www.elromancia.com

دياغو روميلوس عنه.

قال بخشونة:

- أنت تريدين العشاء... اتبعيني سيل... هذا إذا كنت لا تشعرين بوهن في ركبتيك.

●●●



## ٢ - لا شيطان في الزوايا

رمشت عينا سيبيل وهي تدخل ردهة برج روميلوس... إنه عالم آخر، عالم لم تزره من قبل... ارتفع نظرها إلى الأعلى... إلى القناطر الخشبية المعتمة التي غبّرها الزمن... فرأت مصابيح كبيرة معلّقة بسلاسل، تضيء الفسحات الخشبية غير العادية في الردهة.

وعندما استوضحته عنها قال لها:

- إنها مهاجع الرهبان. والزجاج المغشى المرسوم في هذه النوافذ جيء به من إيطاليا، خلال الحروب الدينية بين الكاثوليك والجزويت. أليست قطعاً فنية رائعة؟ هذا «ابو لينارس» بسيفه وغرابه الأسود... وهذا اوغستين يحمل قلبه الملتهب... وهناك «بلايس» يحمل الرمح الحديدي المثلث الذي صلب عليه... لقد عانى دائماً من الاضطهاد... ام أنك لا تعرفين تاريخهم؟

هزت سيبيل رأسها بالنفي وحملقت إلى سلسلة النوافذ الزجاجية المرسومة الملونة الغوطية الطراز التي تحمل صور القديسين... وأشار دياغو إلى رسم شخص ونجمة تتوسط جبهته.

- قديسي المفضل هو «دومينيك» المؤسس الإسباني للرهبنة الدومينكانية. ولطالما كان هناك دومينكانيين في عائلتي منذ أسست... وهذا كان منذ زمن بعيد جداً.

التفتت إليه سيبيل، فقد لفت انتباهها لهجته الكئيبة. كان على



www.elromancia.com

وجهه تحت المصابيح المعلقة من الأعمدة الخشبية في السقف، نظرة تفكير ساكنة، يرافقها لمحة من خيبة أمل تبرز في الخطوط المحيطة بفمه:

ـ النوافذ صممت بترتيب يجعل صور القديسين تلتقط شمس الغروب... منظرهم رائع. وكأنهم يستحمون باللهب. كما حصل لبعضهم جزاء إيمانهم، وأملهم، ومحبتهم لبني البشر.

فتمتمت:

ـ أرواح معذَّبة.

ـ بالضبط... ولكن لنأمل أن لا تتأثري كثيراً بهذه المشاعر... فهي ليست مشاعر يسهل العيش معها.

ـ وهل تعيش أنت معها؟

شيء ما برق في عينيه، فاسود وجهه واجفلت منه... وهو يرد بحدّة.

ـ أنا... أنا آسفة... لم أقصد الفظاظة خاصة بعد لطفك وتقديمك لي العشاء والفراش الليلة.

ـ آه... أجل... الأفضل أن أهتم براحتك.

تقدم إلى مدفأة قديمة الطراز وشد على شريط قماش عريض يتدلى إلى جانبها ليقرع الجرس.

الغرفة زاخرة بالنقوش والتماثيل، ورائحة الحطب المحروق، وبلمعان فولاذ أسلحة قديمة معلقة على الجدران. كل ما يحيط بها أشعرها بأنها في مكان عتيق أثري، ولكن رغم ذلك يبدو كل شيء مرتباً نظيفاً من جرّاء انصياع الخدم لمطالب السيد المتطلب.

مد يده إلى صندوق منقوش فوق حافة المدفأة، واخرج منه سيكاراً طويلاً ورقيقاً وقال لها:

ـ تبدين كقطة دخلت إلى منزل رائحته وجوه جعلاها تجفل.

انحنى فوق النار والتقط عود حطب مشتعل وقدمه نحو



السيكار... راقبت سيبيل بذهول وصمت لمعان النار في الإطار الذهبي لعينيه البنيتين. والتقت عيناه بعينيها:

ـ عيناك خضراوان كعيني قطة.

ـ وماذا يقول أهل الريف المؤمنون بالخرافات عن عينيك؟

لقد تمادت الآن فعلاً بوقاحتها... ولكنها لا تنوي الاعتذار... فلديها إحساس بأنه كان خيراً لها لو تركها في الحقول حيث سيكون المبيت بين زهر الخلنج البري آمن من النوم تحت سقف بيته المخيف.

سحب انفاساً من سيكاره، فتصاعد الدخان ملتوياً من بين شفتيه وهو يقول:

ـ هناك أسطورة... تقول إن أحد السحرة اغوى فتاة من عائلتي وأنجبت طفلاً ذهبي العينين، كعينيَّ، وهما عينان تتوارثهما العائلة منذ القدم، والأسطورة تقول إن كل ذكر في عائلتنا له شعر أسود يجب أن يحمل عيني الساحر... هل أنت خائفة من أن ألقي بتعويذة سحرية عليك؟

ـ لست مراهقة لأصدق هذه الخرافات.

قالت هذا بشجاعة ظاهرة، ولكن نظرته أرسلت قشعريرة غريبة إلى جسدها وصلت إلى أعصاب معدتها.

ـ هل هذه الرحلة الأولى التي تقومين بها إلى ريفنا؟

ـ لقد سمعت قصصاً عنه من جدتي، فلديها صديقة في بيارتيس تقيم معها بين وقت وآخر. إنها السيدة التي اتجه للعمل لديها... هل لديك هاتف سيد روميلوس؟ يجب أن أبلغها أنني لن أصل قبل الغد.

ـ لديّ هاتف، ولكن أرجو أن تؤجلي مخابرتك. هل تمانعين؟

ـ هل سيؤثر فيك اعتراضي؟

ارتفعت يدها إلى حدوة الحصان الذهبية الصغيرة المتدلية من

سلسلة تلامس بشرة رقبتها. فأجاب ببرود:

ـ لا، لن يؤثر أبداً.

ـ انت رجل متعجرف جداً... اليس كذلك؟

نطقت كلماتها بحذر.

ـ الإنسان آنسة بيكوت هو ما يجعله قدره وحظه... لقد رمى القدر حجراً حاداً في طريق إطار سيارتك، وبما أن تلك الطريق طريق خطرة يمكنك اعتبار نفسك محظوظة للبقاء حية. لقد حصلت كارثة لسائق دراجة منذ اسبوعين على نفس المنحنى، فقد كان يقودها كمن يشارك في سباق... هل كنت مسرعة؟

ـ ليس كثيراً...

ـ ولكن مستعجلة... هه؟ الشمس كانت تغيب وتريدين الوصول إلى بيارتيس قبل حلول الليل. أعتقد أنه لولا رؤيتك نوراً في هذا المنزل للازمت الطريق التي ستوصلك إلى قرية صغيرة.

حبست سيبيل أنفاسها... كلمة قرية تعني نزلاً صغيراً دافئاً... قد يرحب بها... وهذا لا ينطبق على برج روميلوس، المخيف كسيده، الذي يعطيها انطباعاً بأنها خطت من العالم الحديث نحو عالم أصحابه لا يسألون عن تصرفاتهم.

مرت عيناها على طول وعرض دياغو روميلوس، فأدركت ثانية أن أمثاله من الرجال أصبحوا نادرين كالنمور.

قالت له:

ـ وهذا يثبت اننا جميعاً نرتكب الأخطاء ثم نندم عليها.

فبرقت عيناه ثانية:

ـ لا شك في هذا. فنحن نرتكب أخطاء، نعيش جحيماً حتى نصلحها.

ـ حتى أنت سيد روميلوس؟

ـ حتى أنا... آنسة.



ـ ما أشدَّ ذهولي بقولك هذا فأنت قوي قاسي!

ـ صحيح... ما من أحد منا يحب أن يضل... على الأقل أنت لم تقعي في المستنقع.

حملقت فيه مذهولة، فأشاح وجهه إلى النار حيث بدا شكله الأسود غامضاً في لهيب النار الحمراء. أردف:

ـ إنها منطقة فيها وحول متحركة وحيوانات كثيرة تسرح فيها كالماشية. وهذا المستنقع في أرضي، وهناك لائحة تحذير ولكن فتاة تسير في الظلام لن تنتبه إليها... لقد خاطرت بتركك الطريق... أليس كذلك؟

أحست سيبيل برجفة باردة:

ـ أجل... لقد فكرت أنه قد يكون هنا مستنقعات. ولكننا لا نفكر أبداً في أن شيئاً قد يحدث لنا.

فقال متجهماً:

ـ القدر هو من يحرك الشطرنج، وما نحن سوى أحجار اللعبة. فلو سرت إلى ذلك المستنقع المتحرك، لاختفيت عن الأرض... مثل أسطورة اورفيوس الذي انجرف وراء زوجته إلى عالم الأموات.

التفت إليها ليواجهها، ولمعان السخرية الحرجة في عينيه... وأكمل:

ـ هل تشعرين في منزلي وكأنما سيد الظلمات قد استولى عليك؟

ـ أنا... أنا أرفض أن... أكون خيالية... لن أبقى هنا سوى ليلة واحدة... ففي الصباح سأرحل.

ولكنه نظر إلى المرأة الواقفة وراءها قائلاً:

ـ بولين... هل تسمحين بالاهتمام بهذه الشابة. قدمي لها فراشاً مريحاً وبعض الطعام... لقد التقيت بها في الحقول... حيث تعطلت سيارتها.

ثم أعاد اهتمامه إلى سيبيل:

ـ مدبرة منزلي ستهتم بمطالبك... يبدو عليك التعب، لذا اقترح ان تتناولي عشاءك في السرير.

لم تستطع إبعاد الشك عن نظراتها إليه:

ـ شكراً لك... أنت لطيف... ولكن بشأن الاتصال هاتفياً ببيارتيس؟

أمسكها بحزم من مرفقها... وقادها إلى أسفل السلم الخشبي الأسود قائلاً:

ـ لا داعي للعجلة.

انضمت إليها مدبرة المنزل... التي كانت تسير بخطوات صارمة، ترتدي ثوباً أسود، وتحمل مفاتيح مشبوكة في حزامها. نظرت العجوز إلى سيبيل دون أن تخفي فضولها. فبدت غريبة تماماً كرب المنزل، بل بين هذين النموذجين شعرت سيبيل بأنها الغريبة بشعرها الأشقر وبشرتها الزهرية.

لا شك في أنهما معاً... من أصل إسباني أو يحملان الدم الإسباني.

ـ من هنا أرجوك آنسة.

صلصلت المفاتيح عندما كانت مدبرة المنزل تديرها... فتبعتها سيبيل وهي تواقة لخلع حذائها من التعب ولتناول العشاء قرب دفء النار.

اتجهتا إلى رواق فوق درج مليء بلوحات لوجوه من العائلة... وحاولت سيبيل أن لا تشعر بأنها ذاهبة إلى برج ليس فيه إلا مقصلة أو سجن. ما هذا الهراء الخرافي الذي تفكر فيه؟ ولكنه منزل يقود الإنسان على غير إرادة منه إلى الخيال فهي مهما حاولت لن تستطيع تحرير نفسها من الإحساس بأن بولين بمفاتيحها وثوبها الأسود وشعرها الرمادي المعقوص، تشبه السجانة.

ـ هل أنت بخير آنسة... تبدين مضطربة وشاحبة؟



ـ ما احتاج إليه فنجان شاي ساخن.

ـ ستحصلين عليه آنسة. حالما تستريحين في الغرفة... أليس معك حاجياتك، لو جاز لي أن أسأل؟

ـ كان معي حقيبة. ولكن السيد جعلني أتركها في الدغل. فقد نقلني معه على صهوة جواده.

فهزت المدبرة رأسها وكأنما تؤكد أن هذا ما قد يفعله.

ـ كنا نتوقع وصولك، ولكننا لم نكن متأكدين من موعد الوصول... أنت على الرحب والسعة هنا يا آنسة.

حملقت فيها سيبيل بذهول... فتابعت المدبرة:

ـ لقد حدث تغييراً كبيراً فيه منذ عاد من رحلته... ولم يقل شيئاً محدداً، ولكنني حضرت الجناح في البرج، وتركته يأخذ حاجته من الهواء خلال الأسبوعين المنصرمين. أعرف السيد، صدقيني، أعرف متى يكون قلقاً، فأنا جزء من هذه العائلة منذ وقت طويل آنسة!

هذا الكلام الأخير صدقته سيبيل، ولكن ما تبقى مما قيل لم يكن له معنى.

التفتت المرأة نحو سيبيل عند أسفل سلم ضيق يوصل، كما يبدو إلى جناح البرج الذي أشارت إليه، وتابعت:

ـ كما قلت لك، كان السيد يلمح إلى زائرة، ولكنه لم يوضح. حالما وضع قدمه في المنزل بعد الرحلة، لاحظت تغييراً فيه. وقلت لنفسي إنه لا بد التقى بمن شغل باله، ثم وصلته رسالة من باريس، ولم يعد لدي أي شك أن احداً ما سيجيء زائراً. وها أنت آنسة.

نظرت سيبيل إليها مسمّرة:

ـ ولكنني...

ـ أعرف انه يحب الأسرار... ولكنه لن يتمكن من إبقائك سراً وقتاً طويلاً...

أحست سيبيل بشيء يمنعها من تقديم شرح وإن كان بسيطاً لهذه المرأة التي أردفت قائلة:

ـ الأنسة باتروسا فهمت أن هناك ما يحتفظ به لنفسه لذا سافرت للإقامة مع أصدقائها في بوردو.

ـ باتروسا يا للاسم المثير!

أجابت المرأة:

ـ هي شقيقته آنسة!

ـ اوه... أجل... شقيقته.

ـ كل ما أنت بحاجة إليه هو طعام شهي ساخن.

ودفعتها إلى السلم الضيق نحو باب دفعته بمرح.

ـ استريحي آنسة، بينما أهيىء لك عشاءك وملابس للنوم هه... كيف رميت حقيبتك في الدغل؟ يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنه لم يهتم منذ سنوات طويلة بسيدة شابة.

تراجعت إلى الخلف لتراقب سيبيل:

ـ أنت فتاة جميلة.

وعادت نحو الباب، وحين كانت على وشك أن تغلقه نادتها سيبيل:

ـ بولين!

ـ نعم آنسة؟

ـ الغرفة هنا دائرية.

ـ في الغرفة الدائرية لا يجد الشيطان زوايا يختبيء فيها.

أقفلت الباب خلفها. فأحست سيبيل بهدوء البرج يطبق عليها... فأينما وجهت أنظارها كان يبدو أمامها رجل أسود الشعر. كانت ألسنة لهيب صغيرة زرقاء الأطراف تتعالى من الحطب المتقد في المدفأة... جلست سيبيل تراقبها وهي ملتفة بروب سميك يصل إلى أصابع قدميها، وهذا دليل على أن الفتاة التي كانت تستخدمه



أطول منها بكثير.

على الطاولة قرب الكرسي، صينية عليها أطباق تنبعث منها رائحة شهية. ولكن سيبيل فضلت أولاً احتساء الشاي قبل تناول الطعام والتفكير في الوضع الغريب الذي وجدت نفسها فيه.

سيبيل لم تنم في مثل هذه الغرفة في حياتها... الحمام يقع في مكان كان دون شك في ما مضى غرفة أسلحة «إنه ليس منزلاً بالمعنى المعروف» كما قالت بولين «بل هو أشبه بقلعة تعد مقراً لعائلة روميلوس منذ زمن. إنه المكان الذي يدافع عنه رجال الروميلوس بأرواحهم لئلا يقع في يد غريب».

سألتها سيبيل:

ـ أوليس متزوجاً؟

ولكن ما من رجل متزوج يستقبل أنثى في منزله. اجابتها بولين:

ـ لم يتخذ السيد روميلوس لنفسه زوجة قط. وأنت تعرفين السبب.

حاولت سيبيل أن تستكشف معلومات أكثر، ولكنها لسبب ما لم تكن راغبة في البوح انها ليست «فتاة» السيد دياغو.

أحست سيبيل بالغضب من نفسها لأنها تصرفت على هذا النحو مع المرأة... تفحصت الأطباق المغطاة، فاكتشفت فيها يخنة الفطر بالأرانب، وفطيرة تفوح منها رائحة التفاح، وكوبا من الحليب.

تنهدت بارتياح وهي تأكل فقد مضى عليها زمن لم تستلذ فيه بمذاق طعام شهي... كهذا... لم تمرّ دقائق قصيرة حتى نظفت الطبق، وبدأت تأكل الفطيرة وتشرب الحليب. عندما انتهت، أسندت ظهرها إلى المقعد، وقررت أنها كانت محظوظة لأن دياغو وجدها في الحقول، فهو مضيف مضياف، غامض قليلاً. مدت قدميها نحو دفء النار، واحست براحة من يسترخي بعد الارهاق والتوتر والجوع.

كان رأسها متدلياً على صدرها شبه نائمة عندما لامستها يد أيقظتها... فرفعت بصرها نعسى، لتشاهد عينا مضيفها الشبيهتين بعيني صقر. «اوه» استوت في جلستها، وجمعت الروب حولها.

ـ هل أجفلتك؟ أرى أنك تناولت عشاء فاخراً.

وأحست بحرارة وجنتيها.

ـ إنه ممتاز... شكراً لك.

تساءلت بريبة، ماذا يريد؟ كان قد سحب يده عن كتفها، ولكن أثر لمسته ما زال باقياً، وقف فوقها تماماً فأحست بالضياع والعجز في مقعدها العميق أمام عينيه اللتين طفقتا تتأملانها.

ـ أرى أن بولين دللتك. تبدين ضائعة في هذا الروب.

ـ قالت إنه لشقيقتك... لا بد إنها طويلة مثلك. سيد روميلوس.

ـ اجل إنها من دم إسباني كما يدل اسمها: باتروسا. وهي ذات شعر أسود طويل يصل إلى كعبيها، وهي تركب الخيول البرية منذ طفولتها. وهذا النوع من النشاط يجعل الفتاة رياضية. وهي إلى ذلك سباحة كالشيطان. نحن لا نبعد أكثر من كيلومتر عن البحر، مع أن موقع المنزل يبدو في البراري. أرضي تمتد مئة متر داخل الخليج الإسباني.

ـ تتكلم كرجل يفتخر بأملاكه.

التفتت إليه فرأت أنه أحضر معه إبريق قهوة وفنجانين. وقال:

ـ لقد فكرت أنك قد تودين بعض القهوة. من عادتي أن أتناولها في هذا الوقت. هل تنضمين إلي سيبيل؟

ـ ما دمت مصراً، أجل.

ـ أنا لا أصرّ على شيء، فلن أجبرك على شيء. سيبيل.

ـ شكراً لك.

تناولت فنجان القهوة، وابتلعته بنظراتها وهو يتحرك إلى المدفأة



ليقف، مسنداً ظهره إليها، ووجهه إلى ناحيتها... يا إلهي ما أضخمه وما أشد اسمراره. إن هذا الرجل يشبه ريح المستنقعات الهوجاء، التي تطيح بالناس عن الأرض. وبسبب عيشه الدائم في البراري الموحشة يبدو أن له قوة غير مقيدة أو أليفة... انّه رجل ذو مركز يسمح له بتنفيذ ما يريد ساعة يشاء.

احتست قليلاً من القهوة، وظهر عليها الارتياح.

ـ جيدة هه؟ إنها إسبانية المذاق والصنع فهي مستوردة مباشرة من هناك.

ـ ممتازة... أنا واثقة من قدرتك على الحصول على الأفضل دائماً.

ـ المشكلة أنك لا تستطيعين دائماً الحكم على الإنسان من خلال مظهره.

ـ وهل تحاول الحكم عليّ من خلال مظهري سيد روميلوس.

ـ وما الذي دفعك إلى هذا السؤال؟

فهزت كتفيها.

ـ لك نظرة حادة تشبه نظرة الصقر المستعد للانقضاض.

ـ وهل تعتبرين نفسك فريسة أوشك أن أنقض عليها؟

ضحك ضحكة قصيرة ثم أردف:

ـ أتظنين انني أتملقك الآن لأخفف من دفاعاتك ثم احملك وأطير بك إلى سرير ذي قوائم أربعة لأحصل منك على ما أريد حتى يتسلل ضوء الصبح عبر النوافذ؟ يا عزيزتي الشابة، لديك مخيلة خصبة، هذا دون ذكر بعض الغرور... لماذا تستهويني بحق الشيطان؟

فاحترقت وجنتيها حرجاً:

ـ أنا لم افكر مطلقاً...

سخرت منها عيناه وقاطعها:

ـ ألم تفكري؟ بل أن هذا ما فكرت فيه منذ التقينا... مذاك الحين وأنت تتساءلين عما أريده منك.

نظرت إليه فأسرتها عيناه فلم تستطع إنكار ما قاله:

ـ مديرة منزلك قالت لي شيئاً غريباً... يبدو أنها تخلط بيني وبين فتاة أخرى كنت تتوقعها.

فضاقت عيناه بوجهها:

ـ كان بإمكانك تصحيح هذا الخطأ، فلماذا امتنعت؟ أعلم انك لم تصححي غلطتها لأنها عندما جاءت تخبرني إنك مرتاحة أشارت إليك على أنك «فتاتي» الشابة.

ـ أجل. هذا ما كانت تناديني به...

ـ كنت تستطيعين إنكار ذلك... لكنك لم تحاولي الإنكار وهذا ما أدهشني.

ـ أظنني كنت تعبة جداً فلم أهتم للأمر. فلماذا لم تصحح خطأها أنت؟

ـ لأنه يناسبني أن تعتقد بولين أنك هنا لأنني دعوتك.

ـ لست أفهم حقاً...

فقاطعها:

ـ هيا ارتشفي قهوتك... أنا لست ذلك المالك المتملك الشرير الذي قد يقصد بك شراً... ولكن لديّ اقتراح اعرضه عليك، وافضل ان لا تنظري إلي وكأنني أعرض عليك سرقه منك.

حبست سيبيل أنفاسها، فهي رغم إعجابها بمزاحه تشعر بتوتر جعلها غير قادرة على الابتسام. لم تكن خائفة، ولكنها تحس بتوتر أعصابها.

ـ هل ترغبين في فنجان آخر من القهوة؟

ـ لا... القهوة قوية، وأريد أن أنام.

والتفت ليحدق في النار... إن له وجهاً صارماً، وأنفاً شامخاً



وفكاً قوياً... فيه مظهر كئيب، وكأنه ضائع في أفكاره.

وجدت نفسها تتساءل عن عمره... ليس في رأسه شعرة رمادية واحدة، ومع ذلك فهو يبدو في الأربعين... إنه فعلاً يثير حيرتها، ويجعلها تأخذ حذرها وتلجأ إلى الدفاعات الغريزية. إن في شرايينه، دون ريب دفء إسبانياً قوياً، يمتزج بألفة شديدة مع هذه البراري، وفيه أيضاً نزعة عاطفية متوحشة.

دياغو روميلوس... يا لهذا الاسم الغريب!

قال لها أخيراً وهو يواجه النار:

ـ سأطلب منك شيئاً قد ترفضينه... وأتوقع أن تقفزي لمحاولة خنقي لأجله... ولكن من الضروري أن تعطيني عليه رداً صريحاً... هل تعطيني وعداً؟

ـ ليس قبل أن أسمع الطلب.

ـ هل تحبين أحداً؟

أحست بأنفاسها تعلق في حنجرتها.

ـ لا شأن لك بحياتي... لماذا يهمك أن تعرف؟

فاستدار عن النار ليواجهها:

ـ لأنني بحاجة إليك للادعاء بأنك تحبينني...

●●●

## ٣ ـ بانتظار الساحرة

لا يبدو لها أنه رجل يتكلم بالترهات... ولكن ما قاله للتو كان مما لا يقبله عقل إطلاقاً.

قالت له:

ـ أنت تمزح دون شك.

ـ لم أكن في حياتي جاداً كما أنا الآن.

فابتلعت ريقها بصعوبة... وقد أفقدها كلامه دقة التفكير:

ـ ولماذا تقترح مثل هذا الادعاء... إنه جنون! بعيد عن المنطق!

ـ لدي أسبابي سيبيل... فلست ذلك المجنون الذي يرمي مثل هذا الكلام جزافاً.

ـ كنت اتساءل عن هذا فعلاً... لماذا اخترتني أنا؟

ـ قلت إنك في طريقك لاستلام وظيفة... وأنا أعرض أفضل وظيفة تقومين بها.

ـ ولكن ما تقترحه سيد روميلوس هو اشتراك في تمثيلية خداع لا أعرف حدودها.

ـ أتوقع منك أن تخترعيها... فأنت امرأة، والنساء قادرات على اختراع كل أنواع المشاعر.

ـ وما الغرض؟

تمنت لو تستطيع الضحك من سخرية الموقف... وأجابها:



ـ قبل أن أدخل في التفاصيل، سيبيل. أريد أن أعرف ما إذا كان في حياتك شاب؟ شاب قد يبحث عنك.

فجأة أحست برغبة في الكذب، وفي ادعاء وجود حبيب ولهان وقد بدا لها هذا سهلاً. ولكن، وهي تحث نفسها على هذا القول، كانت تهز رأسها نفياً... وكأنه انتزع الحقيقة منها انتزاعاً بعينيه الساحرتين.

ـ أذن، أنت حرة؟

ـ ليس تماماً... فلدي وظيفة يجب أن أكملها.

ـ مع سيدة عجوز تتوقع منك أن تخدميها؟

ـ وكيف عرفت هذا...؟

ـ إنك تبدين كامرأة تعنى ببيتها. فقد تحدثت عن جدتك باحترام وحب كما أنك تبدين ممن يناسبهم العمل كرفيق مؤقت. فأنت فتاة وضعت امرأة عجوز ثرية ثقتها بك.

لم تكن سيبيل ساخرة، ولكنه بطريقة ما دفعها إلى هذا:

ـ أنت دون شك سعيد بذكائك سيد روميلوس!

ـ من عادة أهل الريف أن يكونوا شديدي الملاحظة... لقد قلت لك إن هناك مستنقعات يغرق الإنسان فيها.

ـ أتعلم بأنني أحس الآن أنني أغرق في إحداها.

رفع حاجبه الأسود متسائلاً:

ـ صحيح؟ ظننت أنك تملكين روح المغامرة بتركك الطريق والمخاطرة في خوض الحقول.

ـ ما ذكرته لي، جعلني استنتج أنك بحاجة لإنسان لديه روح المغامرة. وأنا لست هكذا، سيد روميلوس!

ـ هل تخشين أن لا تملكي قدرات تمثيلية تؤهلك لتمثيل الحب؟

ـ ليست المسألة هنا.

ـ اسمعيني يا آنسة. إن الطريقة المثلى لنجاح الحياة هو تعلم كيف تنفخين أبواقك بنفسك. ولكن إذا كنت متواضعة، فالآخرون سينظرون إليك باستصغار. فهل ترغبين في أن تلعبي دور كلب مرافق لتلك العجوز!

ـ أنت تعرف تماماً كيف تنسج خيوط العنكبوت حول فريستك؟

ترقرقت الدموع في عينيها وتصاعد غضبها... فصاح:

ـ اللعنة على الشيطان يا فتاة! لا تنظري إلي هكذا! لست أطلب منك بيع روحك لإبليس! إنما أعرض عليك وظيفة سهلة... لعب دور سيدتي المحبوبة!

استرخت سيبيل في مقعدها وكأنما اقتراحه قد خدرها...

ـ سأدفع لك راتباً... لن أتوقع منك القيام بهذا العمل مجاناً... سأعطيك مئتي فرنك أسبوعياً زيادة على ما كنت ستتقاضينه من تلك العجوز.

ترددت سيبيل في هزّ رأسها... هي ليست مرتزقة، ولكن للمال أهمية لمن لا يملك منه الكثير. فلقد أوشك حساب التوفير على الانتهاء، ودفعها وضعها المالي السيء للقبول بتلك الوظيفة للسيدة ايلارد... وسألته:

ـ وإلى متى تتوقع مني... التظاهر بما تطلبه مني؟

ـ المدة التي قد تقتضيها الحاجة يا سيبيل.

ـ وما الهدف؟ فالأمر كله يبدو جنونا!

ـ قلت هذا من قبل. ولكن الحياة كلها جنون... انظري إليها هكذا... فربما قدرك جعل إطار سيارتك ينفجر في هذا المكان اثناء ذهابك للعمل مع سيدة عجوز ستصغين إلى ثرثرتها عن ذكرياتها، وستخرجين ربما كلبها للقيام بنزهة.

ابتسم لها، ولكن كان وراء ابتسامته روح التحدي.

ـ هل تشعرين بالخوف؟



ـ لا تواجه الفتاة كل ليلة طلباً بأن تكون خطيبة زائفة، سيد روميلوس!

ـ فهمت الأمور بطريقة خاطئة آنسة... فما أطلبه منك هو تمثيل دور زوجتي.

لكنه لم يقل هذا... لا بد أن التعب والنعاس وتأثير جو المنزل الغريب قد شوّش سمعها.

ـ أنت دون شك تمزح.

ـ اؤكد لك سيبيل، أن كل ما حدثتك به جاد بكل ما في الكلمة من معنى. فأنا لا أحب المزاح الصبياني. فالوظيفة ستتطلب منك البقاء في هذا المنزل على أنك سيدته... أم أن الدور لا يناسب قدراتك؟

ـ اتساءل فقط أين ستجد امرأة تقبل باقتراحك، سيد روميلوس؟

ـ أظن أن هناك وكالات لاستئجار نساء لكل أنواع النشاطات. ولكن حدث أن ظهرت أنت، والحسن في الأمر أنك دون عمل.

ابتعد عن المدفأة متجهاً نحوها حيث مال فوقها واضعاً يديه على ذراعي مقعدها. فأحسّت وهو قريب منها بأنّها بين ذراعيه... ولكن هذا الرجل البعيد جداً عن الوسامة، يجعلها تحس بأنها تحت رحمته.

ـ اقبلي الأمر على أنه تحدّ.

ارتجفت شفتاها، وأحست بأن أعصابها تتقلص وكأنه يتلمسها.

ـ لا بد أنك تحتاج إلى من يمثّل هذا الدور... بيأس.

ـ ما سأدفعه لك سيمكنك من ادّخار المال، لأنك لن تحتاجي إلى أن تدفعي شيئاً هنا. للمال أهمية لفتاة شابة مثلك... فكري سيبيل، إن قبلت هذه الوظيفة ستؤمنين لذاتك مستقبلاً يجعلك لا تقبلين العمل رفيقة لسيدة عجوز.

ـ صحيح إنه عمل مضجر، ولكنه على الأقل... آمن.

ـ وهل أشكل خطراً عليك؟

ـ لا أعتقد هذا!

ـ وهل أنت قديرة في الحكم على الرجال؟ نحن لم نعرف بعضنا إلا منذ وقت وجيز.

ـ وتفترض مع هذا أنني سأقبل بعرضك خلال دقائق؟ أحتاج إلى وقت للتفكير...

ـ تباً يا فتاة! ماذا هناك لتفكري فيه! أنت بحاجة لوظيفة، وأنا أعرضها عليك... ظننت أن لديك روحاً فضولية ونشاطاً! أظنك فتاة تؤمن بالقضاء والقدر، بالأرواح والتعاويذ والغموض... فهل أنا مخطىء؟

ـ لماذا تذكر الأرواح والتعاويذ؟

استوى في وقفته وقد بدا علي وجهه نظرة عميقة:

ـ من الغريب أن تسألي سؤالاً كهذا. فربما ما أفكر فيه له علاقة بالأرواح والتعاويذ. في اجتذاب أشياء مقدسة في سبيل ازعاج أشياء مدنسة.

لم تستطع سيبيل إشاحة بصرها عنه فقد سرت رعشة باردة فوق ظهرها، تصعد وتهبط.

ـ أنت تقول أكثر الأشياء جنوناً... فماذا تعني هذه الملاحظة؟

ـ أنت عذراء... أليس كذلك؟

ثبتتها نظرته إلى مقعدها. وأحست بأنه عرّاها في سبيل أن يعرف...

ـ كيـ... كيف تجرؤ على...

ـ لا يظهر عليك الغضب. فأنا لا أطلب أن أسلبك جوهرة ثمينة كهذه... فبإمكانك الحفاظ عليها إلى من تحبين، إلى من لديه الرقة والحنان، كل ما أطلبه منك العيش تحت سقف منزلي بضعة أسابيع، مظهرة لي الإخلاص... هل تجدينني مخيفاً إلى هذه الدرجة...



وهل تجدين صعوبة في التظاهر بحبي؟

بما أنها تحس بتأثيره الغامر فيها، فهي مضطرة إلى إظهار تصلبها للتغلب على ذلك الشعور فقالت:

ـ سيكون مجرد ادعاء.

فأكد لها:

ـ إنها لعبة... وهي تصب في خانة مصلحتك... هيا اقبلي بالمهمة.

الصوت المطالب الناعم، جعلها تقلق. إنه رجل قادر، يملك منزلاً كبيراً وأرضاً واسعةً. فلماذا يرغب في إقناع أحد بأنه متزوج. ما أغرب هذا. ومع ذلك وجدت نفسها راضية بالفكرة.

ـ لن أكون أكثر من موظفة. أعني... لن تتوقع مني... أي شيء حقيقي؟

ـ لا... إطلاقاً. ستكون علاقتنا رومانسية.

فشهقت:

ـ رومانسية؟

ـ بما في الكلمة من معنى يا سيبيل. فالكلمات هذه الأيام تفقد معناها الأصلي لأنها تلتوي وتصبح ذات معنى يناسب أشياء رخيصة. فالرومانسية يا فتاتي، تعني الروعة، الغموض، والخيال. نحن... نلاعب بالكلمة دون أن ننفذها. أنا أحاول اقناعك بأن علاقتنا لن تتعدى التمثيل.

ـ وهل أنت ممثل جيد سيد روميلوس؟

ـ الحياة تعلمنا اخفاء مشاعرنا.

ـ إذن عندما أنظر إليك فهذا يعني أنني لا أرى حقيقتك بل رجل يخفي نفسه؟

ـ أنت ترين الآن من نفسي أكثر مما أظهرته للكثيرين ممن يعرفونني... لقد واجهتك بالحقيقة لأنني أحتاج إلى مساعدتك.

فهل ستوافقين؟

ـ هل هناك شخص محدد سنلعب عليه هذه... الميلودراما؟

ـ كنت أتوقع منك هذا السؤال... والجواب هو نعم.

ـ وهل هي امرأة؟

أحنى رأسه، فشاهدت لهيباً في عينيه، جعلها تخشى متابعة سؤالها هذا، لكن شيئاً ما دفعها إليه دفعاً:

ـ أخبرتني بولين أن لا زوجة لك.

ـ وأنا قلت لك ذلك أيضاً.

ـ صحيح... ولكنني لست واثقة من قدرتي على الوثوق بك.

ـ أعرف أنك لا تثقين بي... هل تسمحين لي بالتدخين، فهذه غرفة نومك؟

أحست بالمعنى المقصود في لهجته فخفق قلبها... ماذا ينوي أن يفعل بشأن غرفة النوم في حال وافقت على العيش معه مدعية أنها زوجته؟ تطلعت بعفوية إلى السرير، ثم دعت الله ألا يلاحظ حركتها، وألا يفهم ما يدور في خلدها. قال لها:

ـ معك حق... فهذه الرواية تحتوي على مشكلة أو اثنتين. سأكون صريحاً معك. المرأة التي أحاول خداعها شديدة الفضول بشأن الأخريات، فإذا لم أشاركك غرفتك أو غرفة مجاورة، فستفهم أننا لا نتشارك شيئاً آخر. هل فهمت ما أعني؟

هزت رأسها، لقد فهمت جيداً ما يعنيه، فأحست بحرارة غامرة ترتفع من تحت ثوب نومها لتصل إلى منبت شعرها... إن التفكير بخلوة من نوع ما مع هذا الرجل جعلها تحترق. سألته:

ـ هل أنت... هل هي امرأة تحبها... أم العكس؟ هل هي متزوجة رجل آخر، هل هذا هو الوضع؟

ـ يا فتاتي العزيزة... ثيرونيك كانت زوجتي!

فنظرت إليه بارتباك:



ـ ولكن... قلت لي إنك لم تتزوج قط.

رد بسخرية لا حد لها:

ـ ولم أتزوج. ثيرونيك كانت كل شيء إلا زوجة... لقد فسخت الزواج منذ مدة طويلة.

ـ هذه طريقة غريبة في التفسير، ألا تحب دعوة ما حصل طلاقاً؟

ـ نحن لم نتطلق!

بدأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ودخان سيكاره يلتف حول رأسه. خطواته كانت بقوة خطوات الحيوان، وبالوحشية ذاتها، وكأنه مليء بغضب حارق، يتفاعل ويتصاعد إلى السطح.

ـ كان قد مضى على زواجي منها سنة عندما اختفت من حياتي بطريقة جعلت الناس يشكون في أنني قتلتها، إذ وجدت إحدى أساورها عند المستنقع المتحرك. فارتابت عندها الشرطة... ولكنني كنت أعلم أن ثيرونيك لم تكن في المستنقع فأنا أعرفها جيداً! فهي تريد التشهير بي ونجحت... ولكن التحقيقات أظهرت أن لا أساس رسمي لهذه الشكوك، ولكن رغم ذلك، صدق الكثيرون أنني مسؤول عن اختفائها، ومع أن ما من أحد من عائلتنا يدّعي أنه ملاك. فالتهامس بأنني قاتل زوجته كاد يخنقني.

هل حاول فعلاً اثناء غضبه قتل ثيرونيك؟ لكن لأي سبب؟ إنها تراه من الذين قد يفقدون أعصابهم سريعاً. وكأن كل مشاعره شبيهة برياح المستنقعات العميقة عمق البحر الضارب أبداً على الصخور.

ـ في نهاية السبع سنوات، تقدمت بطلب لإبطال زواجي، فتحررت بذلك منها.

رمى بما تبقى من سيكاره في النار، بايماءة عنيفة تدل على غضبه، وكأنما يريد حرق كل ذكرياته المريرة... وربما قلبه.

نظر إليها متفرساً:

ـ حسناً... سيبيل... ألديك شيء تقولينه؟ هل صدمتِ؟

ـ بل أصابتني الحيرة... لماذا تريد زوجة مزيفة بعد أن تحرّرت منها.

فأخذ نفساً عميقاً، كأنه تنهيدة:

ـ لقد حدث وعرفت أن ڤيرونيك تنوي العودة إلى هذا الجزء من العالم... والمسألة بكل بساطة أنني أود أن أسد في وجهها المنافذ.

جاء دور سيبيل لتأخذ نفساً عميقاً:

ـ هل هي... عائدة إلى حياتك؟

ـ أجل...

قال كلماته ثم رفس الحطب المشتعل بقدمه فانكسر وتطاير الشرر منه...

ـ بعد ما فعلت بك؟

ـ أجل... إن لها الوقاحة والجرأة على العودة.

ـ وهل صدق الناس حقاً أنك دفعتها إلى المستنقع؟

ـ أظنك تصدقين هذا كذلك. لقد صنفتني منذ أحضرتك إلى بيتي على أنني الشيطان، ولكن الشيطان أنثى... امرأة... تعتبر أجمل من السحرة الذين سمعت عنهن في حياتك، وهي ستأتي إلى البرج لتختال بنفسها... لكنني، سأريها أنني لم أعد حراً لأقع ثانية تحت تعاويذها اللعينة!

فابتسمت سيبيل مرتعشة، ومررت يدها على جسدها:

ـ إذن سأكون التميمة التي تحفظك، بعيداً عن ساحرتك، فهل تظن حقاً أنني أملك تلك المقومات؟

ـ ربما... فلو فتشت البلاد طولاً وعرضاً فلن أجد من يقف في وجهها، لذا سأستفيد من الحظ الذي جعلنا نلتقي في وقت كنت أحاول فيه إيجاد مخرج ما.

ـ وماذا يجعلك تظن أنها عائدة إلى هنا؟



ـ منذ شهر تقريباً، تلقيت رسالة دون توقيع تفيدني عن مكان وجودها. وبما أن الرسالة كُتبت بأحرف كبيرة لتغيير نمط الخط، فقد اعتقدت أنها هي من أرسلتها وأنها تخطط لحيلة ما. فكان أن سافرت إلى باريس بنفسي لأجري بعض التحقيقات. وبعد ظهر أحد الأيام شاهدتها تخرج من الفندق الذي ذكرت الرسالة أنها تنزل فيه. وجدتها لم تتغير فشعرها ما زال ناريا وساقاها ما زالتا كما هما عندما كنت أطاردهما في الحقول، حيث اعتدنا أن نطلق لمشاعرنا العنان... هل يصدمك كلامي؟

هزت رأسها نافية... لم يكن كلامه عن المشاعر التي أطلق لها العنان في الحقول ما صدمها بل تلك النظرة التي لمحتها في عينيه... وكأنها لهيب مشتعل من جرّاء تجربة ربطته بڤيرونيك، وحتى وهو يسعى للتحرر منها. أضاف بصوت متهدج:

ـ إذا كنا، أنت وأنا، سنمضي في هذه اللعبة، فيجب أن تعرفي كل شيء. أنا وڤيرونيك، أحببنا بعضنا في هذه الحقول، وهناك حملت بطفلنا... الطفل الذي لم ترغب فيه والذي أجهضته... لقد وضعت يدي على عنقها لأخنقها ليلة عرفت، لذا هربت مني. وهذه هي الحقيقة المرّة كلها سيبيل... فهل تلوميني على القيام بأي شيء لأبعدها عن حياتي من جديد؟ وهل ستساعدينني؟

فردت بهدوء:

ـ أنت تطلب مني، ولكنني لا استطيع إلا أن أسألك: أما زلت تحبها؟ لأنني واثقة أنك كنت يوماً مجنوناً بحبها...

ـ ربما كنت مسلوب اللب بها. وربما ما زال «الڤيروس» في دمي، ولكنني لا أريدها أن تعود! لقد قتلت أي احترام لها في نفسي... وأنا أكرهها!

ـ وتريد أن تتطهر منها؟

التوت ابتسامة ساخرة على فمه:

ـ أود أن أجـرّب... أريـد أن أشـاهـد الطهـارة والقـذارة يتواجهان... وقد يكون ذلك حدثاً مميزاً.

ـ لم أقل بعد انني... هل تتركني أفكر الليلة في الأمر؟

فكر لحظات، ثم رفع رأسه:

ـ حسناً... ولكن لا تدعي التفكير يسبب لك كابوساً. لئلا تتوسلي إليّ في ما بعد، لأنقذك من زج نفسك بين براثن امرأة عجوز...

توقف لينظر إليها، ثم قال:

ـ دعيني أقول لك هذا فقط... كنت أرغب في الطفل، ولكنها وجدت من يساعدها على إجهاضه وهي في الشهر الثالث رامية الخبر في وجهي ذاكرة أنه كان ولداً. منذ اوائل تاريخنا كان المقاتلون من أبناء روميلوس ينجبون أولاداً يحملون اسم روميلوس... وكنت على وشك قتلها لأنها حرمتني من ابني... وكدت أفعل... في المرة التالية سأفعل!

انحنى فوق سيبيل ليمسك بيدها ويحملها إلى شفتيه ويقبلها:

ـ شكراً لاستماعك لي سيبيل... أرجو لك ليلة هادئة.

ثم لم يلبث أن أقفل باب الغرفة وراءه، تاركاً سيبيل للوهن الذي تحس به. لقد استمعت لتوها إلى قصة حب وعنف ولم تشك أبداً في أن كل كلمة منها صحيحة. أخذت تهتز في المقعد وكأن ألماً ما ينتابها تتمتم:

ـ لا استطيع! ولن أفعل!

بينما كانت تتلفظ الكلمات، كانت صورة دياغو روميلوس حية في تفكيرها أكثر من أي شيء مضى في حياتها. إنه لا شيء بالنسبة لها، ومع ذلك تحس بقبضته عليها. التفتت إلى الغرفة المستديرة وسمعت صوت بولين: «ليس في الغرفة المستديرة زوايا ليختبىء الشيطان» ولكن سيبيل أحست بأن بولين مخطئة!



## ٤ ـ الجميلة والوحش

استيقظت سيبيل فجأة من نوم عميق خال من الأحلام. استلقت مسترخية في دفء وراحة الفراش. تمطت بكسل، وجالت بعينيها ببطء نحو أشعة الشمس المتسللة من النوافذ.

تدريجياً زال نعاسها... وأحست بوزن ثقيل على ساقيها:

ـ ما هذا بحق الله...؟

رفعت نفسها على مرفقيها ففوجئت بكلب ضخم ينام فوق ساقيها على الفراش. كلب ضخم رمادي اللون كبير الحجم... نظر الكلب إليها بوقار، وتمنت أن يكون أكثر ألفة مما يبدو...

التفتت إلى جانبها فوجدت على الطاولة الصغيرة صينية عليها إبريق شاي وفنجان ووعاء حليب ووعاء سكر... بارك الله بولين! لم تتمتع سيبيل بتناول الشاي في فراشها منذ زمن بعيد.

تحركت إلى جانبها:

ـ حرك نفسك يا صديقي! خذ هذه البسكويتة.

فالتقطها الكلب وابتلعها في جزء من الثانية، وجلس يراقبها تصب الشاي في فنجان صيني رائع مزين بالزهور... لا مجال للهرب من الحقيقة، المنزل هنا غريب ومليء بالمفاجات.

فجأة تحرك الكلب ورغم ضخامة جسده فقد قفز برشاقة نحو الباب الذي انفتح فجأة لتدخل بولين حاملة حقيبتين وضعتهما عند أسفل السرير.

ـ هاك يا سيدتي... لقد ذهب السيد دياغو باكراً لإصلاح سيارتك والعودة بها إلى هنا. هل مفتاحا الحقيبتين معك سيدتي لأفتحهما لك؟

رمشت عينا سيبيل، لأن ما اجتذب اهتمامها هو مناداة بولين لها بسيدتي بدل آنستي. تقدمت منها بولين:

ـ تبدين طفلة صغيرة... ومع ذلك أنت متزوجة، لقد أخبرني بنفسه... كنت أعلم أنه ينوي شيئاً. ولكنني صعقت عندما أخبرني.

ـ وماذا... أخبرك؟ وكيف فعل هذا؟ لقد وعدني...

ـ وعدك بإبقاء الأمر سراً؟ ولكنه سينكشف في النهاية سيدتي فأنت الآن معه في البرج... ولا يمكنني نقلك إلى جناح الماركيز الأسود قبل أن يطلب مني ذلك... ثم هناك الآنسة باتروسا... فليس لطفاً تركها تظن أنك والسيد دياغو تعيشان دون رابط شرعي.

ـ دون رابط شرعي... دعيني أخبرك شيئاً عني وعن السيد دياغو...

ـ ماذا عني وعنك سيبيل؟

دخل دياغو إلى الغرفة وجلس عمداً على الجهة الفارغة من السرير. ونظر إليها متحدياً. فقالت:

ـ ليس لك الحق...

فقاطعها:

ـ بل لي كل الحق. أعلم أننا تحدثنا عن ترك الناس يعتقدون أننا صديقين لفترة... ولكن بعد تفكيري يا حبيبتي، قررت أن الأفضل إعلان الأمر.

أحست بعينيه فوقها، فتصاعد الاحمرار إلى وجنتيها حين امتدت ذراعه القوية إلى كتفيها:

ـ اتركني...

ـ هيا يا صغيرتي، ستظن بولين أنني اتخذت لنفسي عروساً



مشاكسة إذا لم تتوقفي عن العبوس.

قالت بغيظ وحنق:

ـ بإمكاني قتلك... أنت متعجرف لا تطاق... ليتني لم أرك قط.

فالتفت إلى بولين المذهولة وقال مبتسماً:

ـ سيتحسن مزاجها مع الأيام... إنها طفلة، وجميلة. ألا تظنين هذا بولين؟

ـ أجل... لها عينا طفل وبشرة ناعمة... أتريدين أن أفتح لك حقائبك سيدتي، أم أفعل هذا فيما بعد؟

فرد دياغو:

ـ فيما بعد... ستتناول الفطور في غرفة الزهور فالصباح مشرق، والآن أريد بضع دقائق أبقى خلالها مع زوجتي.

خرجت بولين يتبعها الكلب. فأقفلت الباب ورائها وعندها التفت إلى سيبيل ويده لا تزال على كتفيها:

ـ لم يكن أمامي طريقة أخرى. عرفت أنك لن توافقي على ما أطلب، لذا كان عليّ فرض الأمر عليك... هيا الآن... ليس الأمر سيئاً كما تتصورينه. بإمكانك تعزية نفسك لأنك لست حقاً ملك رجل متعجرف متسلط مثلي.

ـ شكراً لله على هذا!... لقد أخبرتني بولين أنك أصلحت سيارتي وجئت بها إلى هنا.

ـ أجل... ألن تشكريني؟

ـ أوَ تمزح؟

ورفعت يدها على كتفه لتزيحه عنها، فإذا بعضلاته صلبة كفولاذ لا يلين. وتابعت:

ـ أنت لم تكن منصفاً بتصرفك هذا سيد روميلوس. تركتني أعتقد أنني سأتخذ قراري بنفسي... ولكنك كما يبدو قررت أن تنفذ

ما تريد.

- لم استطع تحمل تركك تهربين مني سيبيل. فقد أحسست أنك ستختارين مرافقة المرأة العجوز على المشاركة في هذه التمثيلية... انظري إلى الأمر من وجهة نظري... الحياة تتطلب المخاطرة. لذا خاطري مخاطرة تضمن لك مالاً وفيراً في جيبك. فأين الضرر في هذا؟

- الضرر موجود في خداعنا... فكيف ستكذب على شقيقتك؟ هل هذا ضروري؟

- أخشى هذا، فما من أحد يعرف ڤيرونيك، كما أعرفها، التي ستحاول اغراء باتروسا بالبوح بالحقيقة، فمن الخير لي إذن ألا تعرف باتروسا بالحقيقة فهل أنت خائفة؟ هيا إنها ليست سوى لعبة.

- لعبة خطرة... فلقد أثبتت ڤيرونيك غدرها.

هزأت منها عيناه:

- وهل أنت خائفة؟ لن تنجحي في الحياة إذا لم تخاطري... ولا بد أنك واجهت في حياتك بضعة ذئاب.

- ليس منهم من هو متآمر مثلك، سيد روميلوس.

- يجب أن تبدأي بمناداتي دياغو.

- الاسم يناسبك تماماً... داخلياً وخارجياً!

- أنا سعيد بظنك هذا.

وقبل أن تتمكن من منعه، أمسك بذقنها متفرساً في وجهها:

- لك جمال نساء الأساطير.

- آسفة لأنني لا أملك جمالاً صاعقاً.

- ربما لست خلّابة، ولكنك مميزة.

- وأنت لست وسيماً بالضبط سيد روميلوس.

- قلت من الخير مناداتي بدياغو.

- ولكنني لم أوافق بعد على المضي في الادعاء بأنني زوجتك.



نزلت يده عن ذقنها إلى رقبتها الناعمة البشرة وقال بلهجة مقصودة:

- استطيع إجبارك... أتعلمين هذا؟ هل أصلك غاليّ؟

- أمي ذات أصل غاليكاني، فعائلتها محافظة، ونبيلة.

- تتكلمين عنها بصيغة الماضي.

- أجل كانت تعمل ممرضة في المدينة وتنتقل بالباص إلى منزل جدي، وقد حدث يوماً أن باصاً تحطم، فقتل فيه عدداً من الركاب، كانت أمي أحدهم. ماتت أمي وهي في الرابعة والعشرين.

- آه... إنها مأساة لك سيبيل.

- كنت صغيرة يومها، لكنني أذكرها.

- ماذا عن والدك؟

- لا أذكره... كان دائم التنقل بحثاً عن عمل، ولا بد أنه ابتعد عن حياتنا عندما كنت طفلة. إنني لا أذكره تقريباً فهو بالنسبة لي أشبه بالميت.

- يا لسيبيل المسكينة!

كان في كلماته مشاعر حقيقية، ولكنها كانت مصممة أن لا تتركه يؤثر فيها فردت:

- لقد تمكنت من متابعة حياتي فأنا مصرة على أن أنجح في عملي.

- ستنجحين في عملك معي.

لاحظت أنه بحاجة يائسة لأن يواجه ڤيرونيك بأمر واقع. يريد أن يظهر لها أنه استطاع أن يعيش... ويحب... من دونها.

استمرت تحدق إليه فقال:

- تنظرين إلي بطريقة غريبة سيبيل... فما هو حكمك عليّ؟

- لم أرَ في حياتي رجلاً متسلطاً مثلك. ومع ذلك تسمح لامرأة بإخافتك إلى درجة تجعلك تسعى للاختفاء وراء خداع يورط امرأة



www.elromancia.com

أخرى... فكيف هذا؟

ـ لكل منا نقطة ضعف. قد يبدو لك أن ڤيرونيك لي. ولكنني لا أثق بها. ولا أثق بنفسي أمامها. أترين يا سيبيل، لقد عرفنا بعضنا منذ الطفولة. والجميع يعرف أننا كنا مجنونين بحب بعضنا... لقد أقيم احتفال زفافنا في منتصف ليلة صيفية وذلك عندما يحتفل الفلاحون بعيد القطاف، وهو احتفال وثني قديم متوارث لطرد الأرواح الشريرة وزيادة المحصول... إنني حتى اليوم أتصور وجهها على ضوء النار التي توقد في الاحتفال وهي تقف بثوبها المخملي الأبيض!

تنفس بعمق، وابتعد عن سيبيل، فابتعدت بذلك ذراعاه عنها.

ـ وكالأبله، ظننت أنني تزوجت أكثر الفتيات إثارة. ولكنني في الواقع تزوجت ساحرة... اشبيني بيل ثروب، رسم صورة لها على الورق بالفحم ثم حوّل الصورة إلى لوحة ملونة. وقد أراني إياها بعد أيام من رسمها. فقد ظهرت في هذه الصورة شعلات نارية خفيفة، تتلاعب حول فوديها وشعرها، فقد استطاع أن يرى في عينيها ما لم استطع رؤيته حتى الليلة التي عرفت فيها أنها أجهضت طفلي. وكان ذلك بعد سنة من زواجنا... وكأنما انتظرت سنة لتقدم ولدي تضحية لنيران الشيطان التي تشتعل في داخلها.

ووقف... ثم تقدم نحو النافذة، حيث وقف معطياً ظهره لنور الشمس، ووجهه للظل.

ـ حصل بيننا أكبر شجار عرفناه في غرفة النوم. وتركتها تخرج كل ما في جعبتها كالبغية! وكان لدينا احتفال في القاعة الكبرى، وعندما ضربتها، صرخت حتى جعلت جميع الموجودين يسمعونها. وفي تلك الليلة غادرت البرج. تسللت كقطة في الظلام... ووجدت الشرطة سوارها الذي كانت تضعه مع الثوب الجديد للحفلة. وذلك الثوب هو الذي أشعل الشجار أصلاً، فحالما



شاهدتها فيه عرفت أن شيئاً قد حدث... فجسدها قد عاد كما كان يوم زفافنا. في تلك الليلة أوشكت على رميها فوق السلم. وليتني فعلت.

لم تستطع سيبيل إشاحة نظرها عنه عندما كان يتكلم... فكيف يمكن أذية هذا الرجل الضخم... لكنه حقاً مجروح جرحاً عميقاً وأكمل:

ـ لا أقول هذا لكسب عطفك. فكل ما أطلبه أن تمثلي دور زوجتي فهل ستقومين به؟

ـ حسناً جداً. سأفعل.

كأنما شخص غريب في داخلها نطق بالكلمات، ولكن عقلها أرسل إليها ذبذبات خوف مما هي مقدمة عليه... إنها خطوة عميقة كالمستنقع المتحرك حيث تركت ڤيرونيك سوارها لتوهم الجميع بأن زوجها مجرم. إن التفكير بالمرأة أرسل الرجفة إلى جسدها.

عاد دياغو إلى سريرها فأمسك بيديها:

ـ أنا ممتن لك... آه! يداك باردتان! ما تحتاجينه هو فطور شهي. فارتدي ملابسك وانزلي إلى غرفة الطعام... حيث سأكون بانتظارك.

رفعت سيبيل نظرها إليه:

ـ لم أقم بشيء كهذا العمل في حياتي... وأرجو أن لا تسوء الأمور.

ضغط على يديها بقوة آلمتها:

ـ إنها مهمة صعبة... أعلم هذا... فنحن حتى الآن لا نعرف إلا القليل عن بعضنا ولكن المرأة والرجل لا يعرفان شيئاً عن بعضهما بعضاً إلا بعد زواج حقيقي وما أتكلمه عن سابق خبرة. ارتدي ملابسك وتمرني عدة مرات على النطق باسمي: دياغو.

أحست بموجة ارتباك تطغى عليها... إنها تشبه ممثلة تنتظر

دورها لتخرج إلى المسرح، بشخصية اخرى اخترعها شخص آخر... شخص عليه أن يقنع الجمهور بحقيقتها.

دفنت وجهها في الوسادة خوفاً... لن تستطيع المضي في الأمر! يجب أن تنسحب!

سترتدي ملابسها، وتنزل حاملة حقيبتها، وتقول له بحزم إنها في طريقها إلى بيارتيس.

بعد نصف ساعة، نزلت إلى الطابق الأرضي ترتدي تنورة ذات ثنيات فوقها كنزة بلون ورق الشجر... ولكن دون الحقائب... تحس بالخجل من ضعفها وجبنها. وكان دياغو هناك يقلب بعض الرسائل... حين وقعت أنظارها عليه، علمت لماذا تشترك بلعبته.

إنه يسحرها بقدر ما يخيفها... وما من رجل فعل بها هذا من قبل. إنه يجعلها تحس... بالتهور!

رفع بصره إليها يتأملها:

ـ ثياب «المرافقة» لن تناسبك. ستحتاجين إلى الثياب التي من المتوقع أن أقدمها لك أنا... المحلات في «دايدن» مليئة بها... سنذهب إلى هناك في سيارتي!

ـ سيكون أمامك صراع يائس لمحاولة جعلي متألقة مثل ڤيرونيك... فالصعوبة تكمن في أنك اخترت نوعاً مختلفاً من النساء زوجة لك.

ـ فليكن كما يكون. أريد أن ترتدي أفضل الثياب وهذا لا يعني أن ملابسك قبيحة ولكنها ملابس محتشمة أكثر من اللازم.

اشتعلت عيناها بالغضب:

ـ محتشمة! ما نوع الزوجة التي تريدها... امرأة لعوب!

حدقا إلى بعضهما ثم تلاشت نوبة الغضب بابتسامة تراقصت عند طرفي فمه:

ـ أنت تستشيطين غضباً عندما يمس إحساسك. كل ما أقترحه



هو أن تتجهزي بالكسوة اللائقة لمركزك كسيدة لكل هذا!

حرك يده من حوله مشيراً إلى المنزل.

ـ صحيح ولكن لم يخطر ببالي أنك ستزودني بجهاز عروس.

نظر إليها بخبث:

ـ ولماذا لا؟ ألأن تزويدك بجهاز عروس يجعل الأمر أكثر واقعية؟

ـ لا بأس طالما تبدو حقيقية فقط... سيد...

ـ دياغو... بالله عليك! لا أستغرب أنك دون عمل. فأنت لا تتعلمين بسرعة!

ـ ولا عجب أن تكون الزوج المهجور.

تصاعد غضبها لملامسته الوتر الحساس. لم يؤلمها كلامه فقط بل وتّر أعصابها... ولكنه نظر إليها ببرود، ورفع رأسه قليلاً قبل أن يجيب:

ـ أعتقد أنني أستحق رداً كهذا... وإذا كان جوعك حاداً كلسانك، فأنت بحاجة إلى الطعام سريعاً، أيتها السيدة الشابة... هيا بنا!

عندما لحقت به بدا لها في سيره كرجل الأدغال: يمشي بخفة ورشاقة الفهد، وكأنما ترعرع يتدرب على الرشاقة. واستدار نحو ممر... وتوقف قليلاً أمام باب غرفة ضخمة سقفها من زجاج كان قد سماها بغرفة الزهور...

عندما دخلت سيبيل، رأت أن الشتلات والأزهار مرتبة في أوعية وسلال متدلية. وفوق طاولة من الخيزران، إلى جانبها كرسيان خيزران... تشكيلة من الأطباق المغطاة، تنتشر فوقها أشعة الشمس عبر السقف. أشار إلى الطاولة:

ـ تفضلي بالجلوس... أنا عادة أتناول فطوري في هذه الغرفة.

ـ إنه مكان ساحر سيد...

ـ دياغو!

هذه المرة لم يرفع صوته بالاسم، بل قال بخرير مهدّد... ثم خطا إلى الأمام ليمسك كرسياً لتجلس فوقه:

ـ شكـ... شكراً لك.

ـ قولي اسمي سيبيل. لا يصعُب لفظه.

جلست وهي تحس به فوقها، فقالت مقطوعة النفس:

ـ لا تدفعني إلى كل شيء. يكفيني أن أحس وكأن عاصفة أحاطت بي.

سار خلفها مستديراً إلى كرسيه قائلاً:

ـ آه... ربما... على كل الأحوال يا طفلتي... عليك تعويد نفسك على استخدام اسمي. في الأيام الغابرة كانت الزوجات يبقين رسميات مع أزواجهن حتى بعد انجابهن دزينة من الأولاد... ولكنني لا أحب الرسميات، مفهوم؟

ثم جلس يصب الطعام في صحن سيبيل، بينما كانت تصب الشاي في فنجانيهما... وقال:

ـ طاهيتي، السيدة ديسون هي الفضلى في المنطقة. سأحضر لك ابنتها مساعدة لك. فقد علمت أنها لا تقبل بعمل التنظيفات.

فصاحت محتجة:

ـ ولكنني لست بحاجة لمساعدة؟

ـ إنه أمر إلزامي لسيدة منزل كمنزلي. ربما لم تلاحظي بعد يا عزيزتي ولكن «البرج» هنا ليس كمنزل صغير في مزرعة صغيرة.

ـ أعرف هذا، فلست غبية، ولكنني لا أرى حاجة إلى خادمة خاصة. وكأنني فعلاً أنا سيدة منزلك.

ـ ولكن عليك أن تظهري بمظهر السيدة لذا لا بد من مساعدة. أتريدين الملح والبهار؟

دفع لها بعلبتي الملح والبهار بعد أن رشهما على طبقه. أضافت



سيبيل قليلاً من الملح إلى جانب طبقها.

ـ ولماذا تزعج نفسك بكل هذا بعد طول فراق بينكما؟ أنت بكل تأكيد قادر على مواجهة أية امرأة؟

تناولت قطعة فطر تمضغها. ونظرت إلى وجهه... أية امرأة... ما عدا تلك التي لا يزال يحبها بحرارة النيران التي لم يستطع الزمن والألم والوهم أن يطفئها! وأكملت كلامها:

ـ ألا يقال إن الله يعطي المذنبين فرصة للتوبة؟ قد تكون ڤيرونيك عائدة وهي تائبة.

فرد بقسوة، جعلت طرفي فمه وكأنهما يرتجفان.

ـ لها أن تتوب متى شاءت... ولكنني لن أغفر لها...

ـ وهل أنت متكبر قاسي الفؤاد إلى هذه الدرجة سيد... دياغو؟

ـ آه... وأخيراً تمكنت شفتاك من النطق باسمي! أجل سيبيل... أنا متكبر... وأتمسك بقوة بشرف هذا المنزل. لذا لن تكون لها فرصة ثانية تخوّلها تلطيخ اسم عائلة روميلوس بالوحل لقد افتعلت فضائح وإشاعات كثيرة... أتتصورين أنه لم يكن هناك اشياء أخرى كنت مضطراً إلى التغاضي عنها وهي تعيش هنا؟ عبثها مع اصدقائي مثلاً! ميلها إلى الإسراف، وشجارها الدائم مع موظفي المنزل! وتفاخرها المثير للأعصاب بأنها «الجميلة» وأنا «الوحش»... ثم اجهاضها لابني! سأراها تحترق بنار جهنم قبل أن أغفر لها!

قضمت سيبيل قطعة فطر أخرى.

ـ ألم تفكر بأنه سيكون هناك الكثير من الإشاعات والكلام بشأننا عندما يكتشف الناس الحقيقة؟

فجأة ضاقت عيناه، وثبتهما عليها:

ـ لقد كان هناك شائعات قبل الآن... هل أنت قلقة بشأن سمعتك؟

ـ أجل.

كان ردّها هذا أسهل من قول انها قلقة مما قد يحدث بينهما من مواقف حميمة عند ادعائها انها زوجته، زوجة هذا الرجل غير العادي، المعقد، الفارض نفسه.

انه ادعاء قد يورطهما في نوع من التمثيل الواقعي البحت، وهي لا تثق به تماماً... إنه أعمق من أي إنسان التقته في حياتها... ستحس به يغويها ويجذبها أعمق فأعمق في مؤامرته حتى وهي تناضل بشراسة كي تتحرّر منه.

●●●



## ٥ ـ حريق الذكريات

ارتسمت ابتسامة خفيفة المعنى على فم دياغو:

ـ ستعودين إلى باريس، وهو مكان بعيد جداً عن هذا البرج وعن أي أقاويل قد تلوكها الألسنة بشأن إقامتك فيه.

التقت عيناها بعينيه وسارعت للدفاع عن نفسها:

ـ لا أظنك تهتم إطلاقاً بسمعتي... فأنت تريد فقط تنفيذ مآربك... ومن المفترض أن أسمح لك بهذا... لا بد أنك تعتبرني غبية!

ـ بل العكس صحيح يا سيبيل... أنا أعتبرك فتاة غير عادية.

رفع الطبق المحتوي على ما تبقى من فطر وقال ببرود:

ـ أتشاركينني في هذه؟ لقد التقطتها طازجة بنفسي، عندما كنت في طريقي لإصلاح سيارتك... إنها سيارة «فويغو» رائعة... أظنك كنت تقودين بسرعة عندما ثقب الإطار؟

ـ أنا أحب القيادة... وهذا جزء من عملي مع السيدة إيلارد.

ـ كان كذلك... أتريدين المزيد من هذا؟

ـ لا... يكفي... شكراً لك.

أحست بجفاف في حلقها فصبت بعض الشاي... إنها محقة في ظنها بشأنه... إنه كصقر لا رحمة في قلبه يلاحق فريسته... لو كانت تملك ذرة من عقل لوّلت هاربة من هذا المنزل. فسيارتها الآن أصلحت وفي هذه السيارة سرعة تكفي لابعادها بسرعة.



www.elromancia.com

أمسك دياغو بقطعة من الفطر فوق شوكته:

ـ النساء كالفطر. لذيذة وخطرة فيما لو لم تحسني الاختيار...

مثل القبلة: إما أن تذوب في الفم أو تدمر مثل الفطر السام. أعرف ماذا يجول في فكرك سيبيل. أنت لا تثقين بي ولا تعتبريني رجلاً مهذباً.

نظرت إليه من فوق حافة فنجانها:

ـ وهل استطيع؟

ثم مضغت أسنانه البيضاء قطعة الفطر:

ـ لا استطع قول هذا حقاً... على الأقل، أنا صادق معك.

وضعت سيبيل ملعقة مربى فوق التوست:

ـ يقال إنه لم يعد هناك قواعد هذه الأيام لتكسر... ولكن لا بد أنك وجدت واحدة... دياغو؟

فابتسم، وكأنّما لهجة صوتها تسعده:

ـ تغيير الظروف... يخلق قواعد جديدة. ولكنني أعترف أنني لست بالرجل الذي ينحني أمام التقاليد.

ـ ربما لهذا السبب قال الناس إنك وڤيرونيك خلقتما لبعضكما... ألا تهوى تحطيم التقاليد؟

ـ ما أحطمه أنا يا صغيرتي لا يشمل ذبح الأبرياء. أتظنين أنني لا أرى البراءة في عينيك المراوغتين اللتين تتغيران من الهدوء حيناً إلى الاضطراب كبحر يقع على سواحل خليج إسبانيا... الشكوك تموج في رأسك مثل أمواج المحيط التي ترمي بنفسها فوق الصخور التي تواجهها وتردها... ويمر زمن طويل قبل أن تتمكن الأمواج من التأثير بصخر أو تحويله إلى رمال.

ـ إذن... أنا الأمواج... وأنت الصخر؟

ـ أليس كذلك؟ الحياة لعبة حظ يا سيبيل... ولو لم يكن هناك قطعة صخر على الطريق لما كنت تجلسين الآن هنا... فهل تتمنين



الآن عدم جلوسك هنا معي؟

أشاحت بصرها عنه وأثبتته على نبتة «فوشيا» معلقة في سلة، تتدلى منها ازهارها الحمراء الارجوانية كراقصات صغيرات في الهواء... ردت:

ـ يجب أن تعترف بأن لعبتك هذه ليست تقليدية. وأنا أحس بأنني أنجرف إلى أشياء أعمق... و... لا أنكر خوفي.

ـ خائفة مني؟ أم خائفة من عدم النجاح بدور السيدة دياغو روميلوس؟

ـ أنا مقيدة... فلم يسبق أن لعبت دوراً كهذا... دور زوجة.

ـ لست دهشاً.

ـ هذا لأنك تعتبرني غبية بلهاء، تمكنت بسهولة من اصطيادي، فقد استغليت حاجتي إلى المال، وتلاعبت على مشاعري.

ـ ربما في ما تقولينه بعضاً من الحقيقة، إضافة إلى أن لديك لمسة ما تفتقدها ڤيرونيك الجميلة! فالوراثة فعلت فعلها بها... ولكن جمالها أعماني فلم ألحظ افتقارها إلى كياسة الروح. ولكنني تعلمت بطريقة قاسية.

لم تسمع سيبيل في حياتها مثل هذه المرارة في صوت إنسان، ولا رأت مثل هذا الغضب وفوران المشاعر في عينين... أحست بمعركة طاحنة تدور في نفسه، بين مشاعر الرغبة القديمة التي يحاول التغلب عليها وبين كرهه لڤيرونيك لما ارتكبت بحقه. لقد كرهها لأنها أقل كمالاً من وجهها، كان يظن أن بين يديه ملاكاً... ثم اكتشف أنها تافهة عديمة الضمير.

ربما كان بمقدوره أن يسامحها على تفاهتها وغرورها، ولكن ليس على إجهاضها طفله البريء!

أحست بقشعريرة تسري في جسدها، وكأنما هبة ريح من المستنقعات الموحشة وجدت طريقها إلى الغرفة.

لقد فصل نفسه، قانونياً، عن ڤيرونيك... ولكن سيبيل واثقة أن روحه ما تزال مرتبطة بتلك المرأة التي عاش معها في هذا المنزل، بشكل حميم. شغف انتهى أخيراً بألم!

ـ هل نتصافح لتأكيد اتفاقنا؟

صوته جذبها من أفكارها. فنظرت مترددة إلى اليد الممدودة نحوها فوق الطاولة... كاد تفكيرها السليم يدفعها للرفض... ولكن يدها على غير إرادة منها امتدت إليه... وبينما اصابعه القوية أطبقت على يدها الناعمة، أحست بذبذبة تسري فيها حتى قمة ذراعها، ترسل أمواجاً من الأحاسيس إلى قفصها الصدري حيث كان قلبها يخفق كالمجنون.

إنها كلهب يمتد إلى أطراف كل عظامها. فقالت من بين أنفاسها:

ـ اوه... يا ربي! ما أشد حاجتي إلى الشجاعة!

ـ بالطبع... ولكن لديك «المستوى» وبعض الملابس الفاخرة...

سحبت يدها من يده:

ـ لا! لا أريد أن تصرف مالك على ملابسي... لست أرى ضرورة لهذا... أظن أن في هذا مبالغة... ألا ترى هذا؟

ارتدَّ إلى الخلف متكئاً على ظهر كرسيه، واضعاً سيكاراً بين شفتيه، انتشر دخانه حول وجهه حين أشعله، لكنه بدا ضائعاً في عمق أفكاره.

ـ همم... ربما أنت محقة... صحيح... لماذا شراء ملابس جديدة، بينما هناك خزائن مكتظة بها في تلك الغرفة اللعينة التي أقفلتها منذ سنوات؟ أتوقع أن تجدي على الأقل عشر منها تناسبك... ودون شك جدتك علمتك الخياطة إذا احتجت إلى اصلاح شيئاً منها.



ـ ثياب ڤيرونيك؟

افتراحه ولّد الذعر في نفسها. ومع ذلك رأت المنطق فيما قال. لقد كلفته ثروة، والاكتفاء بها سيزيل الحاجة إلى ثياب جديدة... كما أنها تشعر بالانكماش والتوتر من فكرة زيارة محلات أزياء مع دياغو ورؤيته يحرر شيكاً. ستحس بالتأكيد أنه يوقع عقد شرائها.

ـ ألا تعجبك الفكرة سيبيل؟ لقد كانت دقيقة الاختيار فيما تشتريه، والملابس لم تمس منذ تركتني. والخزائن من خشب السنديان، ولا مجال لأن يفسدها العث. صدقيني... كانت ڤيرونيك معتادة على تغيير ملابسها خمس مرات في اليوم الواحد على الأقل. لتمثل فيها مختلف الأدوار: سيدة المنزل، سيدة المزرعة، ديانا، آلهة الصيد، افروديت، آلهة الجمال والأمواج... كان علي أن أحرقها كلها...

فردت عليه ببرود:

ـ لن تستطيع... فهذه الملابس لامست جسدها... وحرقها قد يعني أن تحرقها هي!

فتمتم:

ـ التعويذة السحرية المناسبة!... لهذا كانوا يحرقون الساحرات في الأيام الغابرة... وحق الجحيم! أنا أصرّ على أن ترتدي ثيابها سيبيل! هيا معاً لنلقي نظرة عليها.

كان للمنزل أبواب عالية، تسهّل للرجال المديدي القامة الدخول منها بيسر. أمسكت سيبيل أنفاسها وهو يفتح الباب بمفتاح كان يحتفظ به في مكتبته... فأصدر الباب صريراً عندما انفتح. كانت الغرفة التي فتح بابها معتمة جوها عفن... تقدم دياغو إلى النوافذ وفتح الستائر المخملية الطويلة، فأرسلت غبارها إلى أنفه، فعطس.

ـ كما ترين سيبيل... هذه الغرفة لم تفتح منذ سنوات طوال.

فتح النوافذ فتسللت إليها أشعة الشمس، حيث تراقص الغبار

فيها. ألقت سيبيل نظرة حولها وهي تخطو داخل غرفة ڤيرونيك المهجورة. ووقفت وهي تحس بقوة لهاث دياغو وهو مع زوجته الأصلية. ثم نظرت نحو السرير الضخم المغطى بغطاء من فرو فاقدة القدرة على النطق.

لا بد أنها شخصية مخيفة، قاسية، حساسة تلك التي كانت تتمتع بالسلطة هنا، والتي استخدمت جسدها لفرضها. واستطاعت أن تتخيل صورة شاحبة لجسد أبيض عار يتكور فوق الفرو البني...

سمعت صوت الرجل الذي امتلك ذلك الجسد فوق الفرو:

ـ حسناً سيبيل؟ ما رأيك؟

أبعدت نظرها عن السرير إلى طاولة الزينة، المليئة بالمساحيق غير المرتبة، وزجاجات العطر، وأقلام أحمر الشفاه... واللعب... لعب قديمة الطراز بينها ملابس تشبه راقصات في قاعة موسيقية.

رأت على الأرض علبة زجاجية مسحوقة وهي دون شك تلك التي ضربت بها ڤيرونيك زوجها تلك الليلة لتخطئه وتكسر المرآة من الأعلى إلى الأسفل... وهذا ما أضاف جو الشرّ على هذه الغرفة السابحة في الفوضى حيث تبودلت فيها كلمات وحشية من... وإلى.

ـ قولي شيئاً سيبيل!

عندما التقت عيناها بعينيه، كانتا كقطعتي ذهب:

ـ لست أدري ما أقول... فالغرفة بحاجة إلى تنظيف.

ـ سأستدعي بولين لتهتم بالأمر.

نظرت إليه بذهول، فرفع حاجبه وقال:

ـ ألست سيدة المنزل؟ ومن المتوقع أن تطلبي رفع الغبار وخيوط العنكبوت عن الغرفة هذا إن لم نذكر شبحها.

فسألته ببطء:



ـ وهل يمكن الخلاص من الأشباح بسهولة الخلاص من خيوط العنكبوت؟

بدا على وجهه ظلاماً وعبوساً وهو غارق في التفكير:

ـ لا... خاصة عندما تتحطم الأحلام فوق الصخور... عندما يحدث هذا فالتطلع إلى المستقبل يبدو دون فائدة... إنه كسفينة تغرق وتغرق بينما قبطانها يفكر في طريقة ما لمتابعة الرحلة... لقد وضعت الخطط وشملت فيها وجود ولدي... ولكن اتضح أنني حسبت حساباتي بينما الثعلبة تمزق عنقه.

الكلمات التي عبر بها عما حدث، بقيت ترن في الغرفة كالصدى، أجال دياغو نظره في الغرفة ثم أكمل:

ـ سحرتها هذه الغرفة دائماً... لذا قررت أن تكون لها... هناك قصة عن هذه الغرفة تقول ان عروساً جديدة كارهة، حبست في هذه الغرفة وحدها ليلة زفافها... وقال لها زوجها «سنرى أياً تفضلين... البقاء وحدك أم البقاء مع الحبيب». تلك الرواية تقول إن العروس وُجدت في الصباح ميتة قرب النافذة لكن لم يعرف سبب موتها يوماً. ولكنني أرى المسكينة تناولت سماً... يقال انها كانت مؤمنة تريد أن تصبح راهبة... ومهما اختلط الواقع بالخيال، فهذه الغرفة فيها جو محدد... ألا تحسين به سيبيل؟

تلفظت سيبيل بردها بكل حذر وكأنما هناك من يسترق السمع إليها.

ـ هناك رائحة عطر محددة... أظنها رائحة القرنفل.

ـ صحيح؟

تنشق ما حوله بعمق:

ـ إن هذه الرائحة ما تزال عالقة من عطر ڤيرونيك.

أشارت إلى زجاجات العطر:

ـ لا... فهذه الأسماء هنا تدل على «كاشاريل» و«غورلان».

وابتسم بوحشية:

ـ لا بد من هذا... فهي لم تكن تقبل إلا الأفضل... أعتقد أنها في باريس وجدت مغفلاً آخر يصرف على رغباتها.

فجأة تقدم من السرير وانتزع عنه الغطاء الفرو ورماه إلى الأرض ثم ركله بوحشية... هذه الحركة أعطت التأكيد للصورة العارية التي تصورتها فوق الغطاء. وعلمت أنه تصور المنظر نفسه... عينا ڤيرونيك مليئتان بالسحر وذراعاها مفتوحتان تدعوانه... وسمعته يتمتم:

ـ أنت تشمين رائحة القرنفل سيبيل... ولكنني لا أشم سوى رائحة لحم تلك المرأة الدافىء التي دخلت إلى هنا عروساً راضية... بحق الجحيم... سأجعل كل ذرة من هذا الخباء اللعين يُنظف إلى أن تصبح رائحته حامض الفينول! أما كل ما استخدمته فسأرميه في سلال المهملات... هذه اللعب اللعينة... إنها تبدو كبنات الهوى!

اقترب من سيبيل مادّاً لها يده:

ـ تعالي... لن أطلب منك ارتداء شيئاً ارتدته هي... فلنخرج من هنا!

وتراجعت قبل أن يمسك بها وقالت بصوت جاف:

ـ أنا... أود أن أرى أغراضها... هل لي بذلك؟

فقطب... ثم هز كتفيه:

ـ ولِمَ لا؟ إذ بعد ذلك سأصنع منها ناراً تشتعل في الهواء الطلق!

واستدار إلى الخزائن المثبتة في الجدار، المصنوعة من خشب السنديان على الطراز القديم، وفتح أبوابها... فبدت أمامها بهرجة الألوان تتلاعب فوق الحرير والمخمل.

ـ كانت هذه المجموعة ترتديها في الأمسيات، هنا أو عندما نخرج للسهر. كانت ليل نهار مولعة بالظهور جميلة... لم يرها



رجل دون أن يشتهيها. ولذلك كانت تتزين... متعلقة بذراعي في حين كنت أعرف أن كل من ينظر إليها من الرجال يحسدني عليها. وإذا عبثت مع أحدهم كنت أتسامح لأنني...

صمت... ثم راح ينظر إلى الفساتين، مقوس الكتفين وكأن ثقل الذكريات أثقل من أن يحمله...

ـ مرّت علي أوقات يا سيبيل، كنت واثقاً فيها من حبها لي... ولكن الرجل قد يكون أبله لا يعرف متى تدعي المرأة التجاوب معه. ولكنني متأكد من أنها لم تكن تمثل وهي بين ذراعي... كان بيننا... شيء! ولكنها دمرت كل شيء. قطعته من لحمي... كما جعلت أحد المتلهفين على المال يقطع ابني من احشائها... إنني وإن كنت أحبها، فلن استطيع مسامحتها، أو التوقف عن كرهي لها. لا لما فعلته بي بل لما فعلته بطفلي.

كانت صرخة نابعة من أعماق نفسه. صرخة لن تشعر سيبيل بمثلها في حياتها.

شعرت عندها بأنها دخيلة، لن تقدر على الحلول مكان ڤيرونيك... والناس دون شك سيهزؤون فيما لو دخلت معه مكاناً متأبطةً ذراعه!

قطع صوته الغاضب أفكارها:

ـ أردت رؤية هذه... فهاك هي...

طارت كومة من الفساتين من بين يديه نحو أسفل السرير... قماش فاخر وألوان تقطع الأنفاس... وشاهدت في خيالها يد تمتد لتنفض الغبار عن الفستان الليلكي، وأصبع ينفض بقعة أخرى عن كم الفستان الأسود اللماع. وتعلق الفستان الليلكي فوق جسد رائع، يجعل الرجال يلعقون شفاههم. وأمسك بها بقوة حتى المها، ولا بد أنه سيترك أثر اصابعه على لحمها. وقالت له:

ـ لن يصدق أحد أنك تزوجتني بعد أن كنت متزوجاً من

ڤيرونيك... ولو أن هذا كان حقيقياً، لا لعبة فحسب لكنت اعترفت لنفسك. فهيا... اعترف بهذا الآن!

فنظر إليها بقسوة أولاً ثم بقوة جبارة رفعها عن الأرض وأطبق بفمه عليها حتى كادت أنفاسها تتوقف.

ـ تزوجيني حقيقة يا سيبيل.

دارت بها الدنيا عند سماع كلماته، فقد اجتاحها الخدر ثم أصيبت بالدوار، بعدها أنزلها فوق السرير بلطف ولكن بحزم... ثم صفق خدها مازحاً:

ـ أيتها الفتاة الحمقاء... ماذا هناك ليغمى عليك.

فردت دون وعي واهنة:

ـ لن... أتزوجك... ولو كنت آخر رجل في الدنيا.

ـ أهذا اطراء؟

قاومت لتجلس ثم تقول:

ـ أنت متزوج... متزوج في قرارة نفسك من ڤيرونيك... إلى أبد الآبدين.

ـ بالله عليك... لا تقولي هذا!

ودفعها فوق الفراش بقوة عضلات غاضبة فصرخت:

ـ لا!

ـ لا؟... الزوجة الصغيرة بدأت تقول «لا».

كان صوت امرأة يأتي من الباب... جلس دياغو كأن تياراً صعقه... فأرجع شعره الذي تشعث إلى الوراء وهو يستدير نحو امرأة كانت تقف عند الباب المفتوح...

سمعته سيبيل يصرخ:

ـ أنت؟

ـ أجل!



وقفت المرأة هناك... خلف أشعة الشمس المليئة بالغبار وراحت تضحك بنعومة.

●●●



www.elromancia.com

## ٦ ـ في قلب العاصفة

ـ أرى أنك لم تكن تتوقع رفقة يا أخي... لقد أعلمتني بولين أنك فاجأتها بزواجك من امرأة باريسية.

عند سماعها هذه الكلمات، عاد الغثيان إلى سيبيل. فاستلقت دون وعي بينما انسل دياغو عن السرير واقفاً... تأثيره القوي تزعزع قليلاً عندما ضبطته شقيقته ممدداً قرب سيبيل.

ـ باتروسا... ادخلي وتعرفي على زوجتي الجديدة. اسمها سيبيل. والصراع الصغير الذي شاهدته لتوك كان حول هذا.

أخرج من جيبه علبة صغيرة وفتحها، فلمع شيء فيها. أمسك بيد سيبيل بحزم ووضع في اصبعها الثالث خاتماً ضخماً لم تشاهد له مثيلاً من قبل.

حدقت مذهولة إلى الجمال الآخاذ للألماسة القابعة فوق الخاتم الذهبي... في وسطها كانت شعلة زرقاء قاتمة خلبت لبّها وخطفت أبصارها وكان هذا البريق ما يزال في عينيها عندما رفعتهما إليه.

ـ سيبيل هي من الفتيات اللواتي يؤمَنّ بالعطاء لا بالأخذ... ولكنها ستضع هذا الخاتم في اصبعها. وستشهدين على هذا... هه باتي؟

تقدمت الشقيقة من السرير... كانت طويلة كأخيها، سمراء مثله، تذهل الناظر إليها. على بشرة وجهها أثر لجرح صغير. الشبه بدياغو موجود، ولكن عيناها مختلفتان، فهما بلون العسل القاتم،



كانتا تنظران إليها بذهول بدءاً من منبت شعرها انتهاء بمقاس حذائها.

ـ يا إلهي! هذه المرة أنت تسرق الأطفال من مهادهم؟ أهذا ما كنت تسعى إليه... طفلة عروساً؟

فرد عليها بهدوء:

ـ اعترف أن هناك فارقاً في السن... ولكن سيبيل ليست طفلة.

ـ وهل رافقتها إلى المذبح؟ أم أن زواجكما لم يجرِ في الكنيسة؟

فسارع دياغو للقول:

ـ بل تم في مكتب تسجيل الزواج. دون ضجة أو احتفال... لهذا أردت التعويض على سيبيل بهذا الخاتم الجميل.

فضحكت باتروسا بسخرية:

ـ جميل؟ هذه مهزلة السنة! إنك تعطيها أحد إرث العائلة... الخاتم الذي وعدت به ڤيرونيك يوم كانت...

صمتت باتروسا عندما رأت تقطيبة سوداء تعتم وجه أخيها... قالت بصوت منخفض:

ـ آسفة... ولكنني صدمت... إنها لا تتكلم كثيراً، أليست هكذا؟

ـ ستصابين بدهشة أخرى... هيا سيبيل، قولي شيئاً لئلا تظنني متزوجاً من شقراء بكماء.

فقالت سيبيل:

ـ كيف حالك؟

ردت باتروسا تحدجها بنظرات فضولية:

ـ بخير... شكراً لك... هل أنت خجولة أم خائفة من دياغو؟ يجب أن تتخلصي من خجلك أو خوفك لئلا يبتلعك ثم يبصق بقاياك.

فابتسم:

ـ أشك في هذا. إنها طرية بحيث لا يمكن أن يبقى منها شيء

دون هضم.

نظرت إليه باتروسا متعجبة:

ـ وكأنك مسحور... هل كان هذا حباً من النظرة الأولى؟

ـ صحيح!

ـ من كلا الطرفين؟

ـ إنها هنا لتثبت صحة كلامك.

مرة أخرى مررت باتروسا عينيها فوق سيبيل:

ـ هل تركبين الخيل؟

فردت سيبيل بهدوء:

ـ لقد نشأت في مزرعة امتطيت فيها الخيل منذ الخامسة من عمري.

ـ هكذا إذن... وهل قابلت دياغو في باريس؟

ـ أنا أعمل هناك.

لم تكن سيبيل واثقة من أنها ستحب باتروسا... فهي بالتأكيد لم تكن تظهر أي جهد لعرض الصداقة، بل مصممة على العكس.

ـ وكيف التقيتما؟

كان السؤال حتمياً... لكن سيبيل تركت لدياغو سبيل الرد:

ـ صدفة... سيارتها... فويغو لطيفة... تعطلت فأسرعت إلى نجدتها... وعندها تحدثنا ثم تعرفين كيف تتم أمور كهذه؟

فعلقت بسخرية قاتلة:

ـ شخصان وحيدان... ليس لديكما ما يشغلكما سوى الوقوع في الحب؟

ـ بالضبط.

نظر إلى سيبيل، ففهمت منه أنه يدعوها للانضمام إلى الحديث، فقالت:

ـ قولي إن ما حدث بيننا كان بفعل... القدر.



فسألتها باتروسا:

ـ وماذا حل بعملك؟ فهذا المكان الريفي ليس وسطاً تجارياً... ولن تجدي فيه عملاً بسهولة.

كادت سخريتها تدفع سيبيل إلى القول إنها حالياً تقوم بوظيفة، هي عبارة عن دور يكاد يجمد أطرافها بتضليله ودقة شراكه. الآن جاء دورها لتنظر إلى دياغو والتوسل في عينيها... فرد بسهولة:

ـ ستجد سيبيل ما يكفي لإظهار براعتها كزوجة لي. من الآن وصاعداً ستكون سيدة هذا المنزل والمزرعة.

نظرت إليها باتروسا بسخرية:

ـ أهذا ما قاله لك؟ وهل ستقبلين بعبء مسؤولية مزرعة؟

خفق قلب سيبيل وقالت:

ـ ولماذا لا؟

ـ سامحيني على قولي هذا... ولكنك تبدين مذعورة... وكأنما تخافين من وضع رأسك تحت المقصلة لئلا تقع وتقطعه.

ربما، بطريقة ما، هذا ما يجري لها. فجسدها يشعر بأنه ينفصل عن تفكيرها... وهذا ما لم يحدث لها حتى لحظة التقائها بدياغو روميلوس. فلطالما هنأت نفسها على تفكيرها الموزون... بعيداً عن التفكير بأية أحداث رومانسية قد تفسد عليها حياتها.

جالت باتروسا بنظرها في الغرفة المغبرة:

ـ هل تنوي تنظيف هذا المكان؟ وهل تعلم سيبيل بأمر...؟

فقاطعها دياغو:

ـ أجل... إنها تعرف بأن هذه الغرفة كانت لڤيرونيك، زوجتي السابقة... وتعرف كل التفاصيل.

نظرت إليه باتروسا نظرة فيها قصد ما:

ـ صحيح؟

والتفتت إلى سيبيل تشير إلى الملابس:

ـ وما رأيك بهذه؟... يا إلهي... لا بد أنها كلفته غلّة الأرض. لم أكن أعلم أن ڤيرا تملك كل هذا! كنت صغيرة عندما تركت المنزل... يقول دياغو عنها انها أجمل امرأة في الأرض من أقصاها إلى أقصاها... هل قال لك هذا؟

نزلت سيبيل عن فراش ڤيرونيك، وابتعدت عنه تنفض الأوساخ عن تنورتها وتمسح الغبار عن شعرها:

ـ أجل... لقد قال لي كل شيء تقريباً عنها.

التقطت باتروسا أحد الفساتين، وتنشقت رائحته، وقالت:

ـ اشم رائحة عطر... ولكنه يختلف عن الذي على الفستان... إنه رائحة زهور... فهل هي لك سيبيل؟

ـ إنها تشبه رائحة القرنفل. وأنا استعمل «آرماني».

فابتسمت باتروسا:

ـ أما رائحتي فهي عادة رائحة الخيل... وأنت محقة، إنها رائحة القرنفل... هل لدينا شبح هنا؟ ولكنني لم أحس بشبح في منزلنا من قبل... لا بد أنك أنت من شجّع الشبح يا دياغو بإقفالك هذه الغرفة وكأنها غرفة «ذو اللحية الزرقاء».

فوبخها دياغو:

ـ مهما كانت هذه الرائحة اللعينة فاخفضي صوتك باتي... أنت تعرفين السيدة ديسون التي لا أريد خسارتها، فهي طاهية ماهرة.

فهزت باتروسا رأسها:

ـ اليس الرجال رومانسيون!

حركت نظرها نحو سيبيل:

ـ مسكينة سيبيل... معظم الفتيات يرغبن في ثوب عرس أبيض، وموسيقى، ومسيرة العروس نحو المذبح. وكلمات «الحب» و «الاحترام» و «الإخلاص» تلك ولكنها كلمات لأن النية هي الأهم.



وقفت سيبيل صامتة... فليتفضل دياغو باختراع الأكاذيب، لأنها لن تختلقها.

تابعت باتروسا تسأل سيبيل:

ـ هل تقولون مثل هذه الكلمات في مكتب تسجيل عقود الزواج؟

رد دياغو على اسئلتها:

ـ الأمر يتم هناك بشكل رسمي أكثر... إذا أعجبك شيئاً ما فيها خذيه لأن هذه الغرفة ستُنظف تماماً من كل شيء.

ـ وماذا عنك سيبيل... هل أعجبك شيء من هذه؟ ما رأيك بهذا... مثلاً؟

فنظرت سيبيل إلى الثوب المخملي المزين باللؤلؤ... كانت الفتاة تضعها تحت اختبار، فعلمت أن أمامها أمرين لا ثالث لهما: فإما أن تمر بهذا الاختبار... وإما أن تجري هاربة من الغرفة. بينما كانت مترددة أحست بذراع دياغو تلتف حول خصرها. وتجذبها نحوه حيث أبقاها هكذا وأصابعه تضغط على لحمها، مرسلة إشارات تحذيرية وصلت حتى عظامها. وقال:

ـ سأشعل النار بهذه الأشياء اللعينة أمام «البرج».

نظرت إليه نظرة مباشرة:

ـ يا للأسف كانت ڤيرا تضع مع هذا لؤلؤة كبيرة اذكرها تلمع على المخمل... بعض الناس ذهلوا لاختيارها باقة زهر من الأوركيديا ذات الأطراف النارية في حفلة العرس.

فرد عليها دياغو ببرودة لاذعة:

ـ مهما كنت تحاولين فعله باتي، فلن تنجحي... سيبيل تعرف كل الجنة والجحيم الذي مررت به مع ڤيرونيك.

تمتمت شقيقته:

ـ قصعة من الكرز المرّ... أترجو اشياء أحلى مذاقاً مع سيبيل؟

ـ وهل كانت هنا لولا هذا الرجاء؟

ـ لست أدري دياغو... كان هناك قصص كثيرة مشوشة...

ـ مثل ماذا؟

ـ قصة تقول إنك تخلّصت منها في نوبة كراهية وحب، وانك بقيت كل هذه السنوات دون امرأة لأنك لم تستطع نسيانها.

بدت ابتسامة ساخرة على شفتيه وهو يمررهما على شعر سيبيل:

ـ إنها قصص يا أختي الصغيرة. فكما ترين لقد اتخذت لنفسي زوجة أخرى.

حدجتهما باتروسا بنظرات عميقة، بعثت في قلب سيبيل خوفاً لا تدري منشأه. إن هذه الفتاة ليست أكبر منها سناً ولكن في عينيها ريبة ونفوراً.

من الواضح أن شقيقة دياغو لم يعجبها زواج شقيقتها سراً، كما يفترض، وهي تستعد لتقسو عليه، فمن وجهة نظرها، خان ثقتها به، وخان حقها في أن يستشيرها في أمر المجيء بشخص إضافي إلى عائلة روميلوس... فقالت له بغطرسة وقحة:

ـ هناك قصة أخرى... رواها لي صديقك فرنسوا ثروب، الذي سمعها عن أمه... تقول إن فيرونيك جيء بها من غرينوبل على سفوح الألب، لتعيش مع ابناء عمها هنا، لأن أمها ماتت في مصح عقلي عندما كانت هي في الثامنة عشرة من عمرها... وإن كانت هذه القصة صحيحة فلا عجب إذن... حسناً... من الواضح الآن أن لها أسباباً دفعتها إلى الخوف من أن تمر بما مرت به أمها... فهذه الأشياء وراثية...

سادهما صمت وسكون، ثم أحست سيبيل بأن ذراع دياغو تترك خصرها، وتبتعد عنها سائلاً باتروسا:

ـ متى سمعت هذه القصة بحق الجحيم؟ إنها كلام هراء! أحاديث خدم...! والدتها ماتت من جرّاء سقوطها عن ظهر فرس



حيث كانت تصطاد.

وقفت باتروسا بوقاحة تواجهه:

ـ هذه رواية لتمويه الحقيقة... فالحقيقة الواضحة أنها جنت ووقعت عن سلم المستشفى فدُقّ عنقها. اسأل السيدة ديسون! لقد عرفت القصة من الطاهية التي تعمل عند عائلة اورورد... فثمة رسالة قرأتها... صدفة أو عمداً.

تكلم دياغو بصوت خفيض، متألم، وكأنه لا يريد أن يصدق:

ـ لا أصدق هذا... ما كنت لأجهل هذه القصة لأنني وفيرونيك كنا مقربين جداً بحيث لن تخفي عني مثل هذا... ولكنت أول من يعرف...

فقالت باتروسا بلؤم:

ـ بل الأخير... فقد كان آل اورورد متكتمين جداً بشأن القصة. خاصة بعد أن عرفوا أنك ستتزوجها... فأنت وريث عائلة روميلوس الذي يريد وريثاً يحمل اسم العائلة... إنها إحدى أساطير المنطقة القديمة، التي تقول إنه لا بد من وريث مباشر للعائلة، والأرض والمنزل. لذا عندما حملت طفلك سعت إلى اجهاضه لأنها تعلم أنها تحمل بذور الجنون في دمها.

فصاح راعداً:

ـ هذا كله محض اختلاق لعين.

التفت بحدة نحو المرأة المكسورة:

ـ كان هناك شيء واحد يهمها... إنه سلامة جسدها ومظهرها... كانت تتزين لتقتل... تتزين لتغزو، وما مزّق عقلها أنها شاهدت جسدها وقد تغير مظهره. فلم تطق التغيير الطفيف الذي حلّ بها من جراء حمل عشرة أسابيع، أحسبها كانت ستجن لو أتمّت الأشهر التسعة!

تأوه فجأة، ثم اتجه بسرعة نحو الباب. ودفع باتروسا عن

طريقة وهو خارج، وقال:

ـ شخص ما من منزل اورورد كان يكذب بشأن أمها. شخص ما أراد أن يسوّد سمعتي. خاصة بعد أن كانت سيدة المنزل هنا ثم انتهى كل شيء. هم من ذهبوا إلى الشرطة لاتهامي... اتهامات جسيمة لا أساس لها... كما تبين!

ووقف عند الباب للحظات، نظر إلى سيبيل وكأنه يراها عبر الضباب، ثم نظر إلى باتروسا بغضب:

ـ لقد قامت ڤيرونيك من بين الأموات يا أختي الصغيرة. وقد تعود في أية لحظة، لتصطبغ وجوه بعضهم خجلاً! فڤيرونيك لم تكن مستلقية في قاع المستنقع طوال هذه السنين... بل كانت مستلقية في فراش رجل آخر!

بعد هذه الكلمات اختفى... تاركاً صمتاً راعداً عاصفاً خلفه... وكان أول ما تصاعد إلى ذهن سيبيل: يا إلهي!... يجب أن أغادر هذا المنزل... فوراً!

تقدمت باتروسا منها لتضع يديها على كتفيها:

ـ تبدين بيضاء من الشحوب... أنا آسفة لما أظهرته من وحشية معك. ولكن الصدمة كانت قوية لي. أعود من سفري فأجد شقيقي قد تزوج من امرأة غريبة. كنت أعلم أن في حياته امرأة ما... ولكن كان يجب أن يثق بي... فأنا شقيقته، التي تهمها مصلحته.

حدقت باتروسا جيداً في وجه سيبيل:

ـ هل أنت واقعة في حبه عميقاً؟

أجفلت سيبيل وكأن معدناً ساخناً لمسها فقالت باتروسا:

ـ آسفة على الخوض في مشاعرك الخاصة. ولكنك لا تبدين ممن يتزوج رجلاً دون أن يكون مهتماً به كثيراً. أعلم أن المال والمركز لهما تأثيراً... ولكن... تبدين... مختلفة.

في عقلها الباطني، شاهدت سيبيل ثانية وجه دياغو المفزوع،



وسمعت لهجته المقاتلة، والعذاب في صوته وهو يتحدث عن عودة ڤيرونيك لتعذبه من جديد... ووجدت نفسها تسأل باتروسا:

ـ هل تلك القصة عن والدة ڤيرونيك صحيحة؟

بدا القلق على باتروسا:

ـ اعتقد هذا... ما كان علي أن أرميها في وجهه بتلك الطريقة... ولكنني كنت متوترة الأعصاب بسبب زواجكما... لقد تسرّع في... تعلمين ما أقصد... كان الأمر مفاجئاً.

وعضت على شفتها... فشردت نظرات سيبيل... إنها بطبيعتها تمد يد المساعدة لكل من هو في مأزق... ولكنها أحست بمشاكل متلاطمة في هذا الرجل الذي عصف لتوه خارجاً من هذه الغرفة، ووجدت نفسها ممزقة بين الهروب من هذا المنزل قبل أذية نفسها وبين تركه يكبّل يديها. لم تواجه من قبل مثل هذه الورطة... ثم سمعت شقيقته تحل لها بعضاً منها:

ـ استطيع فهم لماذا يحتاجك دياغو يا سيبيل... إنه رجل صعب المراس. ولكن في بعض الأحيان... كيف أصف الأمر؟... صعب المقاومة؟

تنهدت سيبيل، فلو غادرت الآن. فلن تعرف نتيجة ما سيحصل، ولكن إذا بقيت فستخوض أكبر مخاطرة لها في حياتها.

رمت باتروسا الفستان المخملي الذي كانت تمسك به وقالت:

ـ دعينا نغادر هذه الغرفة المغبرة الشبيهة بغرف الموتى، ولنذهب لتناول القهوة.

اتجهتا إلى غرفة الزهور ثانية... حيث جلست باتروسا على كرسي من الخيزران، ووضعت ساقاً فوق ساق قائلة:

ـ إنه ليس من الرجال الذين قد يرغبون في زوجة عاملة. أتعرفين هذا.

ما تعرفه الآن جيداً، أنها تركت الجميع يؤمن بأنها متزوجة حقاً

من دياغو وهي الآن عالقة بين خيوط فخه... ومضطرة لإكمال دورها.

- يجب أن أعترف لك أنني لم أصل إلى وفاق كامل مع الرجل الذي وضع هذا الخاتم في يدي. لقد اختطفني عن الأرض... ولم يعدني بعد إليها.

- أنت مختلفة في كثير من الوجوه عن ڤيرا... هل تمانعين لو ذكرتها أمامك سيبيل؟

- إنها جزء من تاريخ هذا المنزل...

نظرت إلى المنزل العتيق المبني من حجارة التاريخ، بجدرانه الشامخة وأبراجه المخيفة. المكان وأهله متجانسان مع وحشة المروج والمستنقعات. مع الصخور الصلبة والأشجار الغريبة التي تشبه في شكلها شكل التنين... خلف الشرفة شاهدت رقعاً ضخمة من أشجار الوزال الذهبية اللون... بينما طار فوق الرؤوس طير يشبه الصقر فحام فارداً جناحيه تجاه السماء.

حملقت سيبيل بالصقر الذي راح يبتعد إلى ما وراء الصخور الشديدة الانحدار والنتوءات الصخرية لهذه الأرض الأسطورية التي ولّدت الكثير من المشاعر القوية التي قد تؤلم وتطارد الناس الذين يحسون بها.

مررت باتروسا اصبعها على ندبة الجرح في خدها:

- الصقر يبحث عن فريسة له... أتعلمين هذا؟ إنه يفترس أي شيء يلتقطه بمخالبه. ما عدا ريش فريسته الذي يبدده في الريح.

فنظرت إليها سيبيل وسألتها ببطء:

- وهل تظنين أنني كنت فريسة سهلة لأخيك؟

فهزت كتفيها:

- في الرجال حيوانية تجتذب أكثر النساء خجلاً... كما تجتذب الأوقح منهن. ولكنّ الفتيات الحلوات، اللطيفات،



البريئات، يتأذين بسهولة سيبيل... فاحذري.

- ومن سيؤذيني؟

- ومن يؤذينا عادة؟

- الأقرب إلينا.

- بالضبط.

فقالت سيبيل بصدق صرف:

- أحياناً نحس بالقناعة مع ما يثير فينا الأذى.

- أنت ممن يهوى الشهادة... هذا ما أنت عليه سيبيل؟

- هذا ممكن.

- الحب أحياناً نيران تحرق القلب... وأخي رجل عميق وعنيد فاحذري.

- هل هو بعمق المستنقع المتحرك؟

- تعرفين هذه القصة. قصة السوار؟ لقد بدا الأمر يومها وكأنها ذهبت وحدها أو أن أحداً أخذها إلى هناك ليرميها في المستنقع. دياغو كان ممن شارك دائماً في سباقات الجري في الحقول، لذا لم يستغرب أحداً أن يتمكن من حمل امرأة ورميها في المستنقع... والمستنقع الذي في أراضينا معروف بعمقه وكثيراً ما ابتلع الحيوانات والجياد.

أحست سيبيل بالقشعريرة:

- وهل صدقت أن أخاك قد يرتكب شيئاً كهذا؟

- شغف آل روميلوس ليس مثل الحليب والماء سيبيل. ألم تكتشفي هذا بعد؟ لا تقولي لي إن شهر العسل لم يبدأ بعد؟

- لقد بدأت تخوضين في شؤوني الشخصية...

- أنت تحمرين خجلا... هذا ما يجيب عن سؤالي... يا إلهي لقد أثّر فيك... ڤيرا كانت تسيطر عليه ولا أحسبك قادرة... كانت نداً له في كل شيء.

ـ ولكنها لم تتمكن من المحافظة عليه... فلقد خطت خطوة أوسع من قدرتها فوقعت ودقت عنقها على يده.

ـ لقد فعلت ما يتوجب عليها... لو كانت أمك مجنونة، فهل كنت تريدين انجاب طفلك؟

ـ لم يثبت أن الناس يجنون بفعل عامل الوراثة. فالأمور التي تحدث لنا في حياتنا هي التي تدفعنا للجنون. وأظن أن ڤيرونيك كانت طموحة وأنانية، وواثقة جداً من نفسها.

ـ من المحتم أن تحسي بالغيرة منها... فليس لك سحرها أو فتنتها... كانت تفتن الطيور على أشجارها... وفي إحدى الليالي برهنت ذلك حين قلدت العندليب في غنائه فلبّى مجيباً فوراً... لقد خدعته تماماً. كانت محتالة رائعة.

ـ إذا كانت ذكية فلما أخبرت دياغو أنها أجرت عملية إجهاض؟ كان لها أن تدعي عدم الاجهاض، أو أن حملها كان زائفاً... هذا إذا كانت فعلاً تخاف على صحة عقل الوليد.

لم تستطع باتروسا أن ترد... فتابعت سيبيل:

ـ كل ما في المسألة أنها متعجرفة، ظنت أنها قد تنجو بأي شيء تفعله... ولا بد أنها اعتقدت أن حب دياغو لها لا قرار له. ولكن الحب في الواقع هو شعور ترضى به النفس. وجزء من النفس البشرية لا تطيق زعزعة صورة المثال الذي تضعه على الرف في القلب. قد نحب شيئاً حطمناه... ولكننا نعرف جيداً أن ما حطمناه تبعثر إلى الأبد...

ـ إذن ستعيشين مع دياغو رغم علمك بحبه لها؟

ـ سأكون صريحة معك باتروسا... شقيقك يحتاجني، لذا تريثني هنا... فأنا لا أثق بالحب. فلقد عرفت فتاة قتلت نفسها من أجل رجل أحبته كان قد غدر بها.

ـ إنها قصة حزينة.



ـ لأنها حقيقية.

ـ ولكن ما من رجل يستحق أن تقتلي نفسك من أجله... ربما صديقتك كانت هستيرية!

ـ لا بل رومانسية.

ـ ربما هذا اسوأ... ربما حاجتنا لمن يحبنا تمسك بخناقنا.

ولم ترد سيبيل على هذا... بل امتدت يدها إلى عنقها وكأنها تحميه... ثم حدقت إلى باتروسا... وقالت بصوت منخفض والتقطيبة تشتد بين عينيها:

ـ لقد جئت لترمي بيدك إلى التهلكة... خاصة إذا كانت ڤيرونيك عائدة إلى هنا. أجل... والله... ألهذا السبب تزوجك؟

ـ بإمكانك القول... إن هذا سبب وجودي هنا.

ـ أجل والله!

●●●

## ٧ ـ لليل قصة أخرى

جلست سيبيل على مقعدها ذلك المساء في غرفة الطعام المغطاة بورق الجدران المرسوم عليها رسماً صينياً. في هذه الغرفة سجّادة شرقية تكسو الأرض رائعة وطاولة من خشب الورد عند الزاوية وكراسي محفور عليها يدوياً، تتوسطها باقة زهور بيضاء برّاقة تحت شمعدانات كريستالية معلقة.

بدا دياغو السيد المسيطر في ثياب السهرة... وعندما ابتسم من فوق أدوات الطعام الفضية والكريستالية والصينية الفاخرة... أحست به في قمة تمثيله:

ـ التقطي كأس شرابك سيبيل... لنشرب نخبنا.

لكن الكلمات خرجت منها دون إرادة.

ـ ثم نرمي الكؤوس في النار؟

ـ ربما هذا هو الأنسب لكنَّ هذه الكؤوس يتجاوز عمرها المئة عام.

ورفع كأسه:

ـ نخب الحب الذي يُعَدُّ أكبر حماقة بشرية على الاطلاق... ومع ذلك فالحياة قد تكون مميتة دونه.

نظرت باتروسا مباشرة إلى سيبيل تراقب وجهها، ثم قالت:

ـ نخب الحب!

ورفعت سيبيل كأسها، وهي تحس بتوتر يُوهن معصمها



الممسك به. يجب أن لا تقع الكأس من يدها... فهي من الكريستال الحقيقي، كذلك السراج الكريستالي الذي هزته نسمة هواء خفيفة... قالت:

ـ إلى أكبر حماقة بشرية.

أحست برعشة انتصار بعد أن وضعت الكأس بين شفتيها ترشف منه جرعة كبيرة. وعندما اعادته إلى الطاولة ما عادت تحس بالتوتر. فأكملت طعامها وهي تهنىء نفسها لأنها قدرت على إمضاء السهرة بمزاح زائف نوعا ما.

ولكنها لم تشعر بالراحة الحقيقية إلا بعد أن أوت إلى غرفتها...

نظرت إلى الكرسيين الموجودين في الغرفة، أحدهما قرب السرير، والاخر قرب النافذة... بدا لها أن من الأسلم وضع أحدهما وراء الباب... وكادت تفعل... ولكنها أدركت أن مثل هذا لن يمنع دياغو روميلوس من الدخول لو أراد.

نظرت إلى المرآة... ثوبها أبسط ما فيها والخاتم الماسي أغلى ما تضعه. تأملت الماسة المركزة على الذهب، ومررت أصبعها على أطرافها، التي بدت متألقة كجمر يوشك أن يلذع إصبعها.

زوجة مزيفة يجب أن تضع خاتماً مزيفاً... للمرة الثانية اتجهّت عيناها نحو الباب الذي يصل غرفتها الكبيرة المريحة بتلك التي تضم فراش دياغو. أحست برجفة في ركبتيها. أكان سيداً مهذباً أم لا... فهو ما زال أكثر جاذبية من كل من قابلتهم من الرجال ولو اختار أن ينسى أنها زوجة بالإيجار، فلن تستطيع فعل شيء لتحمي نفسها منه.

دخلت الحمام، تعرّت واستحمت، وفركت أسنانها، ثم ارتدت غلالة نومها وخرجت من الحمام تضع المنشفة على رأسها لتجفف شعرها. كان أول ما طالعها قدمان تنتعلان خفّاً جلدياً تقفان قرب النافذة. أبعدت المنشفة عن وجهها، ثم حدقت إلى الجسد الطويل

الملتف بروب النوم والذعر بادٍ في عينيها.

قال لها:

ـ هذا صحيح... انهما تغيران لونهما حسب مزاجك، فهما الآن خضراوان صفراوان.

فشهقت:

ـ أنت... أنت... لا يجب أن تكون هنا.

ـ إنه منزلي يا سيبيل!

ـ ولكنني لست لك!

ـ أتظنين أنني هنا... لأطالب بحق السيد؟

ـ وماذا تريد إذن... لقد ألقينا تحية المساء.

فرد بسخرية:

ـ أمام شقيقتي؟ اسمعي يجب أن نوضح بعض التفاصيل. لذا توقفي عن النظر إليّ وكأنني خرجت من مركب قرصان يوشك على تمزيق غلالتك بغية اغتصابك.

ـ الا... يمكن أن نتحدث في الصباح؟... أنا تعبة و...

ـ في الصباح يمكنك البقاء في الفراش حتى الظهر... وهذا أمر طبيعي.

حدقت إليه تحس بضربة التوتر في قلبها، لما تعنيه كلماته:

ـ وعليه... سيكون جزء من الترتيبات أن أدخل إلى هنا لأقدم لك اهتمام الرجل العادي بزوجته الشابة. لن يصدق أحد أنني لن أفعل هذا... لذلك جئت إلى هنا لأقول لك إنني كل صباح، سأدخل لأنضم إليك في الفراش...

ـ لا! لن أقبل بهذا!

فرد بكسل:

ـ ليس لديك خيار آخر يا عزيزتي... لديك فراش واسع يتسع لاثنين.



ـ أنت تحاول التلاعب بي...

واستدار ليواجهها، ويداه في جيبي روبه:

ـ لا يا سيبيل. لقد وافقت على التآمر معي ليظهر الأمر وكأننا زوجان وبما أن الخدم يتكلمون، أريد أن ينتشر الخبر في المنطقة أنني تزوجت من عروس شابة، أقضي معها شهر عسل، فإذا شوهدت في سريرك عند الصباح، وتناولت الفطور معك، فسيتبادر إلى الأذهان أنني أمضيت الليل كله معك... وجئت لأعلمك بهذا استعداداً للصباح.

نظر إليها مقطباً:

ـ بالله عليك يا طفلة... هل يجب أن تنظري إليّ وكأنّ ما أقوله هو قمة الوقاحة؟ أنا سأدخل إلى هنا، أخلع الروب، وأدخل الفراش إلى جانبك. ثم أقرع الجرس ليحضروا لنا الفطور... والمنظر سيكون أساساً جيداً لأقاويل كثيرة في المطبخ.

فردت متحدية، وشعرها المبلل يتدلى فوق عينيها.

ـ لن أفعل هذا! إذا كنت تتوقع مني التمادي إلى هذه الدرجة، فانت تخطىء! فليس من الصواب أن...

خطا نحوها بغضب مقاطعاً:

ـ بحق الجحيم! لا تكوني غبية لعينة مترقبة... فلن أضع يدي القاسيتين على جسدك الثمين... وكأنني أرغب في هذا! في هذا الثوب تبدين مغرية كخروف هزيل... لذلك اعتبري نفسك سالمة من نواياي الخبيثة، إذا كان هذا ما يرجف ساقيك!

ـ أنا لست...

ـ أنت كاذبة ومتزمتة أيضاً... ألم يغازلك رجل أو يعانقك؟ ربما أنت بحاجة لهذا... من قال تلك الجملة عن ان العذارى الطاهرات يخفين نارهن وراء واجهة من ثلج؟

ـ إن قائل هذا القول أبله... فالنار والثلج لا ينتجان سوى بركة



www.elromancia.com

كبيرة من الماء. أرجو ألا تبللني!

ضاقت عيناه ببطء عليها:

ـ مبللة قليلاً عند الأطراف فقط... أنت سالمة يا سيبيل.

ـ أعرف هذا، وهذا ليس بجريمة.

ـ ولكنه يجعلك تخشين الواقع.

ـ كلام هراء...

ـ صحيح يا سيبيل؟

تقدم نحوها فارتدت مذعورة.

ـ ارأيت... أنت خائفة مني لأنني حقيقي لا حلم... أبداً لن تعرفي ما قد أقوم به.

ـ إن لمستني... صرخت...

ـ لن يسمعك أحد... فنحن هنا في عزلة في برج المركيز الأسود هذا ذي الجدران الغرانيتية السميكة أضعافاً عن المباني العادية.

ـ اوه... لن أبقى هنا لأتحمل كل هذا...

ـ بالطبع ستبقين! ما من أحد كلمك بهذه الطريقة من قبل، لذلك أنت متوترة.

ـ هذا ليس صحيحاً!

ـ أليست صحيحة سيبيل؟

ـ أنت تهينني بإشارتك إلى أنني اتمتع بهذا الوضع... أنا... أنا أقوم بدوري سعياً للمال.

ـ صحيح... وأنا أريد ثمن ما أدفعه... ولا أقبل مطلقاً بعمل غير مخلص ممن أوظفهم... هل هذا مفهوم؟

ـ أجل...

ـ إذن... لن تجادليني بشأن تناولنا الفطور كزوجين عاشقين... هل تتجادلين عادة مع مدير المكتب الذي تعملين فيه؟



ـ إذا كان الأمر يتعلق بنوعية العمل أجل، أجادله.

ليس من السهل عليها تحدي هذا الرجل المديد القامة القادر على انتزاعها عن الأرض بيد واحدة ليهزها بقوة...

ـ ولكنني مصرّ على موقفي... فعندما تعود ڤيرونيك، أريد أن يكون معروفاً لدى الجميع أنني غير مهتم بها... وهذا ما يجب أن يستنتجوه، كما استنتجوا من قبل، بمن فيهم شقيقتي، انني قتلتها في فورة غضب حب مجنون!

هل يظن حقاً... انه قادر على مقاومة ڤيرونيك لو عادت لتطالب به؟

نظر إليها، فشاهدت الذكريات تذيب الذهب في عينيه... سألها بحيرة:

ـ هل سترفضيني سيبيل؟ ألا ترين أن جزءاً من الاتفاق هو أن تظهري معي في مكان تعتبره ڤيرونيك مركز سيطرتها؟ لا يكفي ان تظهري في منزلي. أريد ان يشاهدك الناس... شابة شقراء ساذجة. أريد أن يتخيلوك بين ذراعي... مع كل ما تشمل هذه الكلمة... أنا اريد هذا ولا أقبل الرفض!

أحست سيبيل بالتوتر في كل عصب من جسدها:

لن... لن تلمسني...

ـ لن ألمس أصبعك حتى.

ـ فقط... فقط لتناول الفطور...

ـ فقط لتناول الفطور سيبيل.

ـ حسناً... ولكن إذا تجرأت على تخطي وعدك... بعدم... عدم لمسي فسأتركك... هل اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

ـ اعطني وعداً؟

ـ يا فتاتي العزيزة... هل لديك عقدة ما؟ قد ألامس ذراعك

عندما أمد يدي لأخذ الخبز مثلاً . . . فهل ستحاسبينني على ذلك؟

ـ لست أعني . . . هذا . . . النوع من الملامسة!

ـ وأي نوع تعنين؟

ـ أنت تعرف جيداً.

ـ أتعنين النوع الحميم هه؟ ذاك الذي يُعدّ مقدمة لشيء آخر!

فاحمر وجهها وأبعدت عينيها عنه.

ـ أعلم انك تعتبرني متزمتة . . . ولكنني أريد منك وعداً . . . هذا كل شيء!

ـ كل ما سأعدك به هو أن تتوقعي مني التصرف كرجل من عائلة روميلوس. ولكن أخشى أن نكون من النوع الخطر. والتغيير لا يأتي بسهولة لرجل ينحدر من سلالة طويلة من النبلاء.

ـ حقاً . . . ؟ أنت من النبلاء؟

ـ حقاً يا سيبيل . . . ألم أقل لك إنك الآن في برج المركيز الأسود؟ أتحسبينني أنطق بالهراء.

ـ هذا ما ظننت . . .

ـ عائلتنا تعود في جذورها إلى زمن سحيق، بعضهم كان يعمل قراصنة يسافرون إلى بريطانيا واسبانيا في ظلام الليل في سبيل تهريب الجلود والشاي والسكر والتبغ . . . وكانوا يتمتعون بالتسلل من أيدي رجال الدولة.

تفرست في وجهه في ضوء المصباح الأصفر ثم سألته:

ـ وهل فيك دم أسباني؟

ـ هذا ما تجدينه في كل العائلات التي تقطن السواحل . . . هذا عدا الدم العربي والتركي. فنحن على سواحل الأطلسي، كنا تحت رحمة سفن القراصنة. ومنذ زمان سحيق خطفت فتاة من العائلة، وارتحل اخوها بحثاً عنها إلى أن وجدها فنقد فديتها وعاد بها . . . تحمل طفلاً . . . أنجبته فترعرع على أنه من أصل الروميلوس . . .



لذا لا بد أن يكون في دمي بعض من دم تركي كذلك.

ـ حتى من نسبك تهزأ؟ . . . لا عجب إن كان زواجك كارثة.

ـ لن تلوميني على هذا . . . بتاً!

سادهما الصمت فراقبته سيبيل يمسك باحدى قوائم السرير الأربعة بقوة حتى ابيضت عقد أصابعه. وأخيراً قال:

ـ قد تكون تلك القصة عن أمها صحيحة. فقد كان لڤيرونيك اطباع غريبة متهورة. وكانت تحب خداع الناس.

ـ وأنت الآن تقوم بخداعها؟

ـ يمكنك قول هذا . . . لن أدعها تفسد حياتي من جديد.

ـ ولكنك قد لا تتمكن من منع نفسك.

ـ لهذا السبب أطلب منك العون سيبيل.

ـ لا أعتقدني المنافسة الند لها.

ـ وهل هذا صحيح؟

مد يده نحوها فاجفلت كقطة مذعورة. ولكنه دفع أصابعه في شعرها وقال:

ـ أتفحصه لأرى إذا كان قد جف . . . إنه بنعومة الحرير . . . ولكن لماذا قصصته كقصة صبي.

اقشعر جلد شعرها، وشاركها في هذا كل عصب في جسدها.

ـ اعتقد أن شعر ڤيرونيك كان طويلاً!

ـ طبعاً . . . كان في الفراش ليلاً يسترسل حول رأسها وكأنه شعلة نارية.

ـ وهل كان شعرها أحمر؟

ـ أحمر كأنثى الثعلب.

ـ وعيناها خضراوان؟

ـ أجل سيبيل . . . ولكنهما كانتا عكس عينيك، عميقتين متوحشتين كمياه الأطلسي الغادرة.

نظر إليها بتمعن وكأنه يقارنها بها... بالمرأة التي عرفها... ومع ذلك لم يعرفها إطلاقاً... حاولت ألا ترتجف وهي تحس باصابعه تتسلل إلى مؤخرة عنقها، وتضغط، بشكل مهدد تقريباً.

أمسك بذقنها فكان كل ما استطاعت التركيز عليه هو وجهه الأسمر والنظرة الساخرة قليلاً في عينيه متسائلة. وسألها:

ـ الا ترغبين في حب جائع لرجل؟ أم أنك لا تعرفين بعد ما تريدين حقاً؟

ـ أعرف جيداً ما أريده... أن أكون ناجحة في عملي.

ـ ولكن هذا لا يمنع الرغبة في الحب؟

ـ لا يمكن للمرء اعطاء إخلاصه لأمرين معاً... والعمل متطلب.

ـ أكثر من الزوج؟

ـ لن تفهم ما أعنيه.

وقفت متوترة بين يديه... تحس بشدة أن كل ما يغطيها هو ثوبها هذا الذي قد يستطيع اختراقه بلمسة من يده... كادت هذه الفكرة تشعل جسدها.

ـ هل فهمت الان لماذا أريد جعل الأشياء أكثر وضوحاً؟

ـ بأن تشاهد في... فراشي؟

ـ بالضبط.

ـ هذا لن يشير إلا إلى اننا ننام معاً... وأنت بهذا لا تهم إذا لم يقتنع الناس بزواجنا.

ـ وهل تمانعين؟

ـ ليس بالضبط، لكن هذا سيسيء إلى سمعتي متى انتهت مهمتي.

ـ وهل لهذا أهمية؟

ـ أنت لم تحب التشهير بسمعتك... إذ لم تجد لطفاً في أن



يدعونك مجرماً.

ـ لا... ولكنني كنت أعلم الحقيقة، كما تعرفين حقيقة نفسك... وستتعلمين درساً مهماً أن ليس من الضروري أن يحبك الناس.

ـ هذه وجهة نظر ساخرة.

ـ أنا لم أقل ان الحب ليس ضرورياً... فهذا أمر مختلف.

شاهدت سيبيل في وجهه اختلاط السلالات الغريبة القديمة، مع العجرفة الموجودة لدى رجل ولد في هذه الأصقاع الموحشة، التي كانت لأجيال بعيدة معقل لعائلته... حيث كل ابن يخلف أباه ويحمل لقب المركيز.

خرجت منها كلمات من كل قلبها:

ـ أنا سعيدة لأنني لست زوجتك!

ـ شكراً!

ـ أنت تعرف ما أعني...

ـ لكل منا تفسيره الخاص... هه؟ لا تقارني نفسك بثيرونيك إذا كان هذا ما تقصدينه.

كان لكلماته لمسة سوط أجفلها وكأنه حقاً يلسع جلدها.

ـ ولكن الناس سيقارنونني بها، متسائلين عما ترى فيّ من ميزات مختلفة. أخبرتني باتروسا أنك قلت عنها إنها أجمل مخلوقات الله.

ـ صحيح... فيها كل ما يثير الرجل، وما يرسله إلى الجحيم... ولأنني أريد الخلاص من الجحيم سأكون ملعوناً لو خاطرت برحلة أخرى!

فجأة ذهبت كل عجرفة فيه، فحمل سيبيل بين ذراعيه وسار بها إلى السرير. عندها اجتاحها الخوف، فضربته واصابت فكه بلكمة، فكانت قوية إلى درجة آلمتها أكثر مما آلمته.

ـ انزلني!

ـ هذا ما سأفعله!

أنزلها من بين ذراعيه إلى السرير ثم وضع الأغطية وانحنى فوقها تسخر عيناه من ارتباكها.

ـ فيك سحر ساذج خاص يا عزيزتي. ولكنني لن أفسد فرصتي في تناول فطور معك. فسأتركك لنوم مريح... وسأعود في الصباح.

ابتسمت عيناه بخبث وهو يمسك بيدها ويرفعها إلى فمه ليقبلها.

ـ أحلام سعيدة سيبيل.

راقبته يتجه إلى الباب الموصل إلى غرفته، حيث وقف فيه تنصب عيناه عليها، وكأنما يتذكر فتاة أخرى تجلس مكانها، فتاة ذات شعر يحيط به لهب ناري. عندما أقفل الباب خلفه، ارتدت إلى سيبيل أنفاسها تدريجياً، بعد فترة تركت رأسها يسترخي فوق الوسادة... ولكن... مضى وقت غير وجيز قبل أن تستجمع شجاعتها لتطفىء المصباح الذي تركها في ظلام دامس، يتناهى إليها رائحة السيكار من الغرفة المجاورة.

استلقت هكذا، تراجع كل ما قالاه لبعضهما... فكان أن استخلصت من كل ما قاله حقيقة واحدة... إنه ما زال غارقاً في حب ڤيرونيك المتوحشة.

●●●



## ٨ ـ همهمات الألم

استيقظت سيبيل في الصباح على أشعة الشمس المتسللة عبر أسلاك الشباك الناعمة فوق سريرها الكبير المريح. حالما فتحت عينيها، أحست بالتوتر لأن دياغو قد يدخل من الباب في أية لحظة، ربما مشعث الشعر، ربما مرتدياً روباً أسود مفتوح عن صدره الأسمر حيث ينتشر الشعر الأسود فوق عضلات قاسية ويهبط تدريجياً نحو المعدة.

لقد مضى الآن ثلاثة اسابيع على انضمامه إليها كل صباح لتناول الفطور... ومع ذلك ما زالت تحس بالتوتر كلما انفتح الباب، وخطا خطوة واسعة نحو السرير. كان يرمي بروبه إلى الأرض ويتسلل إلى جانبها تحت الأغطية... لقد شكت في أنه ينام في فراشه عارياً كما ولدته أمه... ولكنه وفاء بوعده، كان يرتدي سروال البيجاما كي يظهر وجوده في السرير أمام الخدم حميماً.

انتشرت شمس الصباح حول الغرفة وكأنها تبحث عن مكان تنعكس فيه فوق الفراش النحاسي اللامع الأثري، وعلى أطراف زجاج وعاء البودرة المكسور وعلى الفرشاة الفضية الخاصة بأم دياغو التي قال إن باستطاعتها استخدامها.

افترضت سيبيل أن أمه ميتة كأبيه الذي قتل خلال الحرب. كان أبوه قد مات تحت التعذيب لأنه رفض أن يفشي اسم شركائه، وقد ذكر لها دياغو أن اسم والده محفور على نصب تذكاري للشهداء

ونظرة كئيبة إلى عينيه كشفت لها أن امه انضمت إلى راهبات الكرمل... وكان قد روى لها القصة تحت صورة كبيرة لها في الغرفة الكهرمانية التي تستخدمها العائلة غرفة جلوس. وقال إن ماري روميلوس كانت متوحشة صلبة الإرادة كزوجته السابقة. وإن موت زوجها سبب لها الإحباط، ولكن لم يخضع روحها المتمردة، وما أخضع تلك الروح كان موت شقيقه الأصغر، الذي كان في سنته الثانية في جامعة الجزويت تلبية لنداء الكهنوت... وفي إحدى الأمسيات خرج للنزهة مع أصدقائه الذين أغروه بزيارة أحد الأماكن المشبوهة حيث داهمتهم الشرطة وهكذا طرد الجميع من الجامعة.

كان جان يومها في السابعة عشرة، أذهله ما حدث أشدّ الذهول لأنه يخالف تماماً المبادىء التي نذر نفسه لها... فكان أن سار فوق خط السكة الحديدية، حيث صدمه القطار.

كادت صدمة مقتل جان تقتل ماري روميلوس... التي كانت تحب الولد الأصغر الأقل سلطة من دياغو، والأكثر أناقة في المظهر، كان شاباً يافعاً مسالماً يأخذ كل شيء بإخلاص قلبي... قد أدّى موته إلى ركودها في الفراش أشهراً، حتى إذا ما شفيت كان شعرها الأسود قد غدا فضياً. فتركت المنزل لتنضم إلى رهبانية الكرمل.

أخبر دياغو سيبيل كذلك أنه كان يشاهد أمه مرتين في السنة، فالرهبنة الكرملية متزمته جداً إذ كان يحدثها عبر شباك حديدي، وقد ذكر لها أنه كاد لا يعرف تلك المرأة الراهبة، البعيدة كل البعد عن تلك المرأة المليئة حياة ونشاطاً التي طالما أحبت ركوب الخيل، والصيد، وإقامة الحفلات، وارتداء أفخر الملابس.

بدا لسيبيل، وهي تسمع هذا، أن دياغو حُرم من العاطفة... فوالده الشجاع مات بينما كان هو في الخامسة وأخوه جان في الثالثة وأخته تحبو. لذا يكاد لا يذكره، أما حبّ أمه فكان منصباً على أخيه



الرقيق... ربما لأنها كانت تعتقد أن دياغو كبير وقوي قادر على مواجهة الحياة أو لأنها رأت في ابنها الأصغر الحاجة إلى الدعم... وقد ظهر لسيبيل أن دياغو أحب أمه بصمت... والدليل الثابت على ذلك زواجه من فتاة تشبهها.

بقيت سيبيل مستلقية في فراشها تفكر في كل هذا إلى أن ادركت فجأة أن دياغو تأخر بالدخول لتناول الفطور هذا الصباح. والباب الذي انفتح لم يكن بابه... بل باب دخلت منه خادمة تحمل صينية أصغر من المعتادة، عليها فنجان شاي واحد. عندها احست سيبيل بتوتر ما في الجو.

ـ صباح الخير سيدتي!

كان لابتسامة جيزيل، الخادمة، ابنة السيدة ديسون الطاهية، غمازتان كبيرتان في خديها، ووجهها دائم الاحمرار من الصحة والمرح. كان الجميع يناديها «خوخة» والاسم يناسبها تماماً... ووضعت قوائم الصينية فوق ركبتي سيبيل:

ـ إنه يوم مشرق رائع... وصيادو الأسماك منتشرون بمراكبهم على السواحل حول الميناء وبإمكان سماع النورس فوقهم، يصيح بجشع وجوع!

صبت سيبيل فنجان الشاي واضافت الحليب والسكر... لا بد أن هناك سبباً معقولاً لغياب دياغو عن الفطور ذلك الصباح. أرادت أن تسأل «خوخة»... ولكن سيبدو منافياً للعقل أن لا تعرف زوجة مكان وجود زوجها.

ـ ماذا أحضرت للفطور؟

رفعت الغطاء عن طبق فكشفت عن توست فرنسي شهي وبيض مقلي مع اللحم.

ـ همم... يبدو لذيذاً...

وقفت جيزيل تحدق إلى سيبيل التي بدت خائفة في ذلك السرير

الكبير:

ـ أليس لديك اعتراض سيدتي؟

أوقفت سيبيل فنجان الشاي معلقاً في الهواء:

ـ اعتراض؟ ولم الاعتراض في مثل هذا الصباح المشرق الجميل؟

ـ لأن السيد دياغو تلقى برقية ذهب أثرها بسيارته للقاء القطار القادم من بوردو...

خفق قلب سيبيل:

ـ برقية ممن؟

ـ من التي هربت منه وسببت له كل تلك المشاكل.

يا إلهي... هذا ليس صحيحاً!

أعادت الفنجان ببطء إلى الصينية، فقد أحست بارتجاف يديها ولا تريد أن تريق الشاي فوق الفراش... لم تستطع تصديق ما قالته جيزيل... فهي هنا... وفي هذا الفراش بالذات، لتمنع ڤيرونيك من دخول حياة دياغو مجدداً... فماذا يفعل هو في محطة القطار؟ فهل ذهب ليستقبلها؟

إن جيزيل، دون شك، أساءت الفهم.

ـ ربما البرقية ليست من ڤيرونيك.

مسحت جيزيل يديها في محرمتها النظيفة المكوية:

ـ ما من شك في ذلك سيدتي... ابن الجنائني وجدها مرمية على الأرض قرب الكاراج فأحضرها لتراها أمي التي تجمّدت عندما قرأتها... ثم قالت إنها ستحضر لك فطورك المفضل.

فتنهدت سيبيل:

ـ هذا لطف كبير من أمك جيزيل.

إذن لقد حدث هذا! لقد نادت ڤيرونيك، واستجاب دياغو لندائها دون تردد! أحست بوخزة مؤلمة حادة وهي تتخيله يقابل



المرأة الملتفة ربما بالفرو راضية عن نفسها لأنه تخطى من تسمى زوجته تلبية لدعوتها... وتلاشت شهية سيبيل للطعام، ولكنها اضطرت لإظهار عدم الاكتراث بشأن ما حدث... مهما كانت ستصبح الأمور مأساوية.

أجبرت سيبيل نفسها على التقاط قطعة بيض بشوكتها لتضعها في فمها... ثم قالت:

ـ أتوقع أن تطلب منه نقلها إلى مزرعة آل بوردي... فقد سمعت أنها ستقيم فيها.

فقالت جيزيل بانفعال:

ـ لقد عادت لتلاحقه ثانية! أستميحك عذراً سيدتي، ولكن سيتوجب عليك أخذ الحذر منها.

تمكنت سيبيل من الابتسام:

ـ أعلم... يفرحني أن يقلق الجميع علي.

ـ أنت لطيفة معنا سيدتي. أمي تقول إن من المؤسف أنك لست ندّاً لها.

ـ أعلم أنها جميلة جداً...

فرفعت جيزيل رأسها:

ـ قد يفوقينها جمالاً يا سيدتي إن ارتديت ثيابك الجديدة. تبدين رائعة جداً في ثوبك الأخضر الذي يماثل لون عينيك الأخضر الفضي، كما أدعوه.

ـ شكراً لك جيزيل!

ـ على الرحب والسعة سيدتي... أما هي فلا... عذراً على قولي هذا ولكن ماذا ستفعلين سيدتي؟

ـ سأقاتلها!

صاحت الفتاة مبتهجة عند سماعها كلمة القتال تلك، لكن سيبيل دُهشت مما قالت.

ـ يا لهذه الروح القوية، إياك أن تدعيها تسلبك زوجك. فالسيد دياغو رجل مميز... قوي ومهذب... لذلك هي تريد استرجاعه! لقد سمعت أنه تزوج مجدداً فلم تستطع تحمل الخبر... لا تدعيها تأخذه!

اشتد احمرار وجه جيزيل. فردت سيبيل:

ـ لست أنوي أن...

صمتت مفكرة... فهي تعرف أن الأرض التي تقف عليها غير ثابتة ومتحركة كالمستنقعات... وان ڤيرونيك، ربما في هذه اللحظات بالذات، قد رمت بتعويذتها السحرية على دياغو. فبينهما عقد زواج وإن حلّه القانون. أما ما بينها وبينه فلا يعدو أن يكون اتفاقاً واهناً.

ـ هل يتكلم القرويون عنها جيزيل؟

ـ أجل سيدتي... فهم يتذكرون طريقة امتطائها الجواد الذي قتلته حين ادخلته في سياج شائك... كان من أصل عربي وهدية من السيد دياغو... الحيوان المسكين... وقد اضطر السيد دياغو أن يريح الحصان الأصيل من آلامه... في حين وقفت تنظر إلى اللحام وهو يقوم بذبحه. وقتذاك لم تذرف دمعة عليه بل امتطت سرج حصان السيد دياغو وانطلقت بالسرعة السابقة نفسها عبر الحقول.

رفعت جيزيل الصينية عن السرير، وحملتها إلى الباب، ثم التفتت، فارتج ما على الصينية:

ـ سيدتي... أنا لن أخدمها إن عادت إلى هذا المنزل... فأنا لا أمانع بأن أساعدك في أي شيء تطلبينه...

ـ لن يصل الأمر إلى هذا جيزيل...

وقفت جيزيل تنظر إلى سيبيل بصمت، ثم قالت:

ـ ألن يصل سيدتي...؟ من المؤسف انك لست حاملاً... فهو لن يتخلى عنك مقابل ملكة سبأ إن كان طفله في أحشائك.



اقفلت الباب وراءها، بينما بقيت سيبيل مستلقية تحترق... جيزيل على حق... فلن تستطيع امرأة في الدنيا أن تبعد دياغو عن زوجة تحمل طفله... الذي ربما سيكون صبياً... الوريث التالي لعائلة روميلوس.

ـ لكنني لست زوجته!

رنت الكلمات عالية واضحة في ذهن سيبيل. وفي أمكنة أخرى من جسدها... وبشكل رئيسي... في قلبها.

اوه... لا!

استوت في الفراش. تلف ساعديها حول ركبتيها بحركة دفاعية تحتضن نفسها لتحميها من قوى المشاعر التي تغزوها، والتي أبقتها بعيدة عنها حتى هذه اللحظات... ولكنها الآن أفلتت من عقالها واجتاحتها، محطمة دفاعاتها.

لقد وقعت في حب دياغو روميلوس... ولأنها لم تقع في الحب من قبل كان الشعور غامراً... خاصة الآن... وهو يقابل ڤيرونيك ثانية، حيث الشمس ساطعة فوق شعرها الأحمر الملتهب كنار حول وجهها المتوحش الجمال.

دفنت سيبيل وجهها في الوسائد... تعذبها الصور التي تمر في مخيلتها... ستمد ڤيرونيك ذراعيها لتضعهما حول عنقه... وسوف يتنشق رائحة عطرها ويخضع لها ويعانقها بجوع عمره سنوات طوال.

ارتجفت سيبيل... واحست بالغيرة الحقيقية وبالغضب لأنها سمحت لنفسها بالوقوع في حب رجل لن يكون لها.

كل ما بينهما ادعاء... كل ما بينهما غير حقيقي... باستثناء ذلك التوق الذي احست به في داخلها عندما نزلت إلى الطابق الأرضي بعد ساعة يرافقها كلب دياغو الضخم الذي الزم نفسه بها... كان أخو الكلب التوأم ينفر من الجميع إلا من سيده، وكان

ذلك الصباح متمدداً على أرض الردهة يبدو نكداً لأن دياغو تركه في المنزل. فلديه أمور أهم من الاعتناء بكلبه وإخراجه ليتمشى عند صخور الشاطىء التي لا تبعد كيلو متراً واحداً عن المنزل.

وقفت سيبيل لحظات تفكر، يداها في جيبي سروالها الجينز، الذي ترتدي فوقه قميصاً بسيطاً، ووشاحاً أحمر مربوطاً عند العنق... وهي لمسة تمرد صارخة ضد ما تحس به تجاه رجل أقسم أنه لا يرغب في زوجته السابقة ومع ذلك، لم يستطع مقاومة أول فرصة ليكون معها. رفع الكلب عينيه إليها وكأنه يتوسل... إنه يريد الخروج إلى الشاطىء حيث يلعب ويبلل نفسه بمياه البحر... قالت له «هيا بنا إذن» وخرجت من المنزل يتبعها الكلب، الذي أطلق نباحاً عالياً تعبيراً عن سعادته. بعد خمس دقائق قرر الكلب الآخر الانضمام إليهما، وعلى وجهه تلك النظرة الكئيبة، يمشي مطأطىء الرأس وكأن غريزته تنبئه بأن شيئاً مزعجاً يختبىء في الجو... هذان الكلبان يبلغان من العمر خمس سنوات... وهذا يعني أنهما لم يكونا من سكان البرج عندما كانت ڤيرونيك سيدته.

صاحت سيبيل توبّخ نفسها:

ـ أوه! دعك من التفكير بتلك المرأة!

توجهت إلى الشاطىء تنزل الدرجات والريح تلفحها وتلفح وشاحها الأحمر.

كان الصباح لامعاً، والبحر الهادىء الأخضر اللون متلألئاً وكأنه مضاء بأشعة فضية، تخترق وتتراقص وتتلاشى في رغوة مزبدة بيضاء بعد اصطدامها بالصخور التي تحد الرمال.

تنفست بعمق الهواء المنعش، وركضت، يتبعها الكلبان السعيدان، فوق الرمال إلى حيث كانت المياه تندفع فوق الصخور مثل النافورة، تبلل شعرها وبشرتها... وسرعان ما وجدت قطعتان من الخشب متماثلي الحجم... فرمتهما بعيداً ليندفع الكلبان بجنون



نحو البحر لاسترجاعهما. سيبيل تحب السباحة، ولكن دياغو حرّمه عليها إلا إذا كان معها، فمياه الخليج جميلة للنظر، ولكن فيها قوة لا يمكن الوثوق بها. ودياغو يعرف مياه المحيط كما يعرف كل شبر في ارضه... فقد مارس السباحة منذ كان صبياً. لذا أصر بحزم على عدم السباحة وحدها. كانت قادرة على أن تجادله بأن ڤيرونيك كانت تفعل هذا... ولكنه كان مصمماً على فكرة أنها لن تستطيع التعامل مع عناصر الطبيعة المتوحشة.

كان قد رافقها لرؤية المستنقع المتحرك اللامع المكسو بالعشب والطحلب حتى بدا لها أنه من غير المعقول أن يكون تحت هذا الجمال أرض متحركة قد تغرق حصاناً خلال دقائق.

ودلها دياغو على النباتات الفضية التي تنمو قرب المستنقع حاملة الزهور الصفراء، ودلها كذلك على أزهار صغيرة تشبه القلنسوة... وقال لها إنها متى شاهدت مثلها يجب أن تأخذ حذرها لأن ذلك يعني وجود مستنقع متحرك على مقربة منها... صحيح أن بعضاً من هذه المستنقعات غير عميق ولكن بعضها الآخر لا قعر له، واي إنسان يغطس في أحدها يصبح بعيداً جداً عن الكون.

وفكرت في نفسها بكآبة: إنه كالحب. انحنت تلتقط صدفة أخذت تلمسها بأصبعها على غير هدى... لقد غطست في هذا المستنقع قبل أن تدرك خطورة تلك الخطوة... وأحست بجاذبيتها المتصلبة على جسدها... إنها كقبضة مؤلمة على قلبها.

جلست على الرمال، فانضم إليها الكلبان، يلهثان ومن فروهما الناعم يتصاعد بخار تمتصه اشعة الشمس، وفي عيونهما نظرة تنصب عليها، لامست رأسيهما الكبيرين، فتلقت لعقة من لسان أحدهما ونظرة كئيبة من الآخر:

ـ لا يلزمكما الكثير لأساعدكما... من الأفضل لكما أن لا تحبا ذلك الرجل كثيراً... إنه متعلق بمن يعرفها وأحبها قبل أن

يعرفكما... لذا من الأفضل أن تتخليا عن حزنكما بسبب ابتعاده... وإياكما أن تدعاه يعرف مدى حزنكما.

تثاءب الكلب المتعلق بها ووضع رأسه بين قائمتيه، ولكن الآخر المحب لسيده، حدق في وجهها وكأنه فهم كل كلمة قالتها له... فتنهدت ثم استلقت على الرمال فضاقت عيناها بفعل الشمس... يا لهذا الشاطىء الممتد...! المياه زرقاء لامعة يخالطها اللون الأخضر... البحر يتسلق الصخور ليؤلف بركاً واسعة، تبقى مكانها عندما يتراجع البحر بفعل الجزر... الشاطىء، مع الجزر ومياهه المنخفضة، يبدو مهجوراً... مكان غريب يحده الذهب القرمزي والفضة النحاسية. أحياناً تجد هنا وهناك أصدافاً مذهلة الشكل ملقاة بين طحلب البحر فوق الرمال.

كانت الصخور المرتفعة تعلو كثيراً فوق الخليج... ونداء النورس يتعالى بما يشبه مواء قطة وحركة البحر تستمر في صخبها. هذا الخليج جميل، ومتوحش... فلاعجب إذن أن مالكه يتجاوب مع النساء بالطريقة نفسها.

أصغت سيبيل إلى صوت المياه تروح وتجيء ضاربة الصخور... واستلقت هناك دون حراك... ضائعة في أفكارها مع حركة البحر... منذ زمن سحيق كانت السفن الشراعية تتحطم عند هذه الصخور...

تحركت الأمواج راعدة صاخبة، وملأت الهواء بالرذاذ الرطب. الشمس الشديدة الحرارة استولت على مشاعر سيبيل... فجرفتها إلى النوم تحت صخور الغرانيت الضخمة.

فجأة استيقظت ففوجئت بعملاق يقف فوقها، يظللها بظله. تجمّدت حيث هي مستلقية... تشعر بأن عظامها تذوب وبأن قلبها يعصف بجنون... كان الكلبان الضخمان يدوران حوله ونباحهما العميق يتعالى ترحيباً به.



ـ مرحباً يا من تحت!

ـ مرحباً... لقد غفوت...

وجلست مرتبكة...

ـ قد يفسد البحر والهواء نظام الرأس.

مد يده فأحسّت به سيبيل يرفعها على قدميها دون جهد... أصابعه تقبضان على يدها، وهي تحاول سحبها. أخفت ظلال حاجبيه التعبير الذي علا عينيه... لكنها لاحظت أناقة ملبسه، إنه دون شك غني جداً. يقدر على أن يظهر بأفضل حلة عند لقاء ڤيرونيك.

قالت له مدعية خفة ليست فيها:

ـ سمعت أنك ذهبت إلى المحطة.

فضاقت عيناه واشتدت قبضة أصابعه على معصمها:

ـ هذا صحيح... كان عليّ أن أقول شيئاً لڤيرونيك كما كان علي أن أتأكد من عدم وصولها إلى البرج دون توقع.

ـ هكذا اذن...

اشاحت ببصرها عنه تتمنى أن يترك يدها... فلمسته كانت متملكة أكثر من اللازم... وهي لم تعد تشعر بقوته فقط، بل برجولته الباعثة اضطراباً في نفسها... إنها أمامه غير محصنة فهي غارقة في حمّى حية تجتاح شرايينها، وتُوهن ساقيها، لوجوده قربها. إنها فعلاً مصابة بالحمى وعليها المقاومة.

حاولت جهدها أن تظهر عدم اكتراثها.

ـ اتصور أن زوجتك السابقة كانت ساحرة الجمال.

أحست بعينيه تتأملانها وهو يرد:

ـ من رأسها حتى قدميها... لا تبدين مكترثة لأنني قابلتها واوصلتها إلى المنزل الذي استأجرته لقضاء الصيف.

التقت عيناها بعينيه، وهنأت نفسها على حسن أدائها دورها!

ـ ولماذا أكترث كزوجة حقيقية، قد تختلق فضيحة لأنك تأنقت للقاء زوجتك السابقة... اوه يا عزيزي... كل هذا أمر سخيف ألا ترى ذلك؟ فبعد قليل ستعزف موسيقى الحب لك ألحانها من جديد.

اخشوشن صوته، كذلك قبضة يده على يدها:

ـ أتظنين الأمر مزاحاً؟

ـ بل أنه مضحك ومسلٍ... فأنت تسعين إلى إيهام الجميع بأنك تزوجت ثانية. لكنك سرعان ما تخرج راكضاً لدى أول إشارة تطلقها ڤيرونيك... على كل الأحوال، لقد سئمت من القيام بالتمثيل... فإن تكرمت ودفعت اجرتي... سأتابع سفري... لا أظن أن أحداً سيدهش... فالجميع يعرف إنك ما إن تراها حتى تعود لتعلق فوراً على صنارتها.

أمسك بكتفيها يهزها حتى شهقت:

ـ سأعلقك أنت بالصنارة... أيتها السمكة الصغيرة الوقحة! فهدفي الوحيد من لقائها هذا الصباح كان أن أحميك منها... كي تتخلصي من مثل هذه النظرة المذهولة عن وجهك... فأنا أعرفها! كانت ستأتي إلى البرج مستخدمة كل أسلحتها لتشعري...

فردت عليه بغضب مقاطعة:

ـ بأنني متطفلة لا تفي بالمطلوب؟

ـ أجل... هذا عدا أشياء أخرى.

ـ محتالة مدعية؟

ـ إذا رغبت في قول مثل هذه الأمور، فهيا أخرجيها من نفسك.

ـ أريد الابتعاد... الابتعاد عن حياتك!

كانت كلماتها تشبه البكاء... فكرهته لأنه وافق على كلامها... كانت قد أحبته حتى وهي ترغب في الابتعاد عن كل تلك المشاعر التي تؤلمها... كانت مجنونة لأنها اعتقدت نفسها قادرة على إتمام هذه التمثيلية معه. إنها الآن تتألم من أشياء حقيقية وتريد



أن تهرب قبل أن تخرج مشاعرها عن سيطرتها.

رفع الرعب من وتيرة صوتها حتى كادت تصرخ أثناء مقاومتها له.

ـ اتركني!

أمسكها دياغو بقوة من ذراعيها، فبدا أن شيئاً ما في عينيه يحترق قبل أن يصمت صراخها بفمه. لتختنق الكلمات... لم يكن عناقه لها إلا اعتداء عنيف، وكان من القوة بحيث لم تستطع سوى تقديم الخضوع له. كانت ذراعاه قد طوقتاها وجذبتاها إليه بقوة آلمتها... حتى شعرت بأنها توشك على الإغماء.

تلاشت كل قدرة لها على المقاومة، ووقفت بصمت، وجهها على كتفه، تعلم فقط أن ليس هناك اية رقة فيه. بل الرغبة في السيطرة.

أحست أنها مملوكة... تمتلكها قوة أبعد من سيطرتها... هزها النحيب وهي تحس بذراعه تلف خصرها... وبأنفاسه تلفح شعرها:

ـ أنا أطلب منك البقاء سيبيل. لقد عقدنا اتفاقاً... ولن أعطيك فرنكاً واحداً مما وعدتك به إلى أن تكسبيه بجدارة فهمت؟

ـ ولكنني لست أهلاً للوظيفة...

ـ أنت تتهمين نفسك بعدم الكفاءة لا أنا... أنت من اعتبرت ذاتك دخيلة، طفيلية.

أبعدها عنه لينظر إلى وجهها المنتحب فردت مرتجفة:

ـ هذا ما أنا عليه دياغو... ألا ترى... لا بد أنك تحب ڤيرونيك بقوة حتى تحس بحاجتك إلي... لأحميك من مشاعرك... أوه... الأمر مضحك!

أحست برغبة عاصفة تدفعها إلى مد يدها لإبعاد تلك الخصلة عن جبهته... لكنها رغبت أكثر في أن تلامس فمه، برغبة تماثل

رغبته في المرأة التي يبعدها عن نفسه.

ـ أعلم أنني أطلب منك الجحيم سيبيل.

ـ وهل من المفترض... أن أقابلها؟

فطأطأ رأسه:

ـ أمر لا مفر منه... أنها تتحرق لتطفىء فضولها بشأنك. فهل ستطيقين هذا سيبيل؟

ـ وهل لدي خيار آخر؟

تحركت عيناها وحدهما في وجهه المتجهم الأسمر... الذي قد يظنه الغريب معرضاً للخطر. ولاحظت عضلة متوترة تتحرك قرب فمه... فمه الذي لن تنظر إليه بعد الآن دون أن تعرف مدى قساوته ومتطلباته... ارتسمت عليه بسمة ساخرة:

ـ كوني واسعة الأفق يا عزيزتي... حتى أمنعها من المجيء إلى منزلك دون دعوة، دعوتها بنفسي إلى العشاء مساء الجمعة.

ـ اوه... يا إلهي!

فقال ساخراً:

ـ لا تفقدي الوعي...! أنا واثق من أنك ستقدرين على التعامل معها. أريدك أن تفعلي هذا من أجلي، على أن تكوني ممتازة في دورك... ستمسكين بيدي وتنظرين في عينيّ مثل العروس الحقيقية... وكأنني مركز كيانك.

ـ ومن تظنني لأبرع في هذا الدور؟

ـ في الواقع أنه يتطلب درجة عالية من المقدرة.

ضحك، ولكن دون أن تظهر بارقة مرح في عينيه ثم أردف:

ـ لقد طعنتني في القلب سيبيل... أعتقدتك لا تكرهيني إلى هذه الدرجة.

أحست سيبيل بحاجتها الماسة لإخفاء مشاعرها الحقيقية عنه. فاجابت ساخرة:



ـ لا ينفعك أن تستنتج ما تريد.

لو كان لديه فكرة ضئيلة عن تلك المشاعر، لأطاعته وغرقت تحت رحمة ما يختار أن يطلبه منها. أبداً لن تسمح لنفسها بأن يستغلها ثم يرميها عندما تستعيده ڤيرونيك في النهاية.

ـ إذن انت لست معجبة بي سيبيل؟

ـ قلت بنفسك إن محبة الناس ليست ضرورية.

ـ اذن فأنت ترمين كلماتي في وجهي... هه؟

حدقت في البحر، مختارة التزام كبريائها حتى وإن استسلم قلبها الأحمق دون أن تأذن له.

ـ ليس بيننا ما هو مشترك... الناس محتاجون إلى هذا إذا أرادوا... الصداقة!

ـ صداقة يا سيبيل؟ وهل هي ممكنة بين رجل وامرأة؟

فردت بهدوء:

ـ هذا ما يجب أن يكون... فمن دونها لن تُطاق الحياة، كيف لنا العيش قرب إنسان ما دون صداقة؟

وسألها ساخراً:

ـ ألم تسمعي بالحب؟

ـ سمعت به... ولكنني أفضل أن أتدفأ بنار الموقد على الاحتراق به.

فوقف بصمت، وضاعت نظراته في عمق السماء والبحر الباردين بينما أجازت لنفسها نظرة سريعة إليه، أظهرت عن وجه عنيد جسور، متجهم، مناسب لحفر على قطعة نقدية تعود إلى الأزمنة الغابرة. أحست بتدفق مشاعر غير مرغوبة تجتاحها، وبارتجاف في عظامها وفي كل جذور كيانها... نوع من المشاعر قد يحطم كل دفاعاتها كما يتحطم البحر برذاذ رطب فوق الصخور السوداء... هزت رأسها بصمت... القرب منه نعمة من

السماء... وجحيم في آن واحد.

قال لها فجأة:

ـ أنت ترتجفين... وحق الجحيم لم يكن لي مثل هذا التأثير في فتاة من قبل. أم أن التفكير بزوجتي السابقة يجعل ركبتيك واهنتين؟

إن السبب هو... لمسته... تمسكه المثير للسخط في نفسها الذي لم تتمكن من الافلات منه. إنه قوة أبعد من سيطرتها استولت على مشاعرها وحركاتها. لقد تملكها... استحوذ عليها... وكأنما شخصيتها قد انفصمت، نصف فيها يتمنى الخلاص ونصف آخر يتمسك بسهولة الإمساك بقطة من مؤخرة عنقها. تمكنت أن تقول:

ـ ارتجف لأنني لم أذق شيئاً منذ الصباح... وأنا جائعة، وأود تناول الغداء.

ـ أجل... لا بد أن هذا هو السبب.

كانت لهجته لهجة أب يتحدث إلى طفلته التي تحيّره بمزاجها المتقلب.

ـ اعتقد انك بحاجة للابتعاد عن جو المنزل... لذا سنذهب للغداء في مطعم أعرفه عند الشاطىء. اتحبين هذا سيبيل؟

ـ اوه... أجل!

ـ هيا بنا إذن.

سارعت سيبيل إلى غرفتها تخلع ما كانت ترتدي عند الشاطىء... لو أحس دياغو بالعذاب الداخلي مثلها، فهي تشفق عليه... فالحب يجب أن يكون متبادلاً ليكون ممتعاً... ودون هذا هو مجرد ألم.

لامست يده ذراعها وهو يساعدها على الصعود إلى السيارة، فالتقت عيونهما للحظات. قبل أن يستدير إلى الناحية الأخرى ليصعد وراء المقود... كانت تعلم ما يتمناه... إنه يتمنى أن تكون



القلوب كالأجساد كي تنظف ويتغير شكلها لتتخلص من الرغبة والذكرى.

انطلقت بهما السيارة عبر طريق منحدر حاد. فتمسكت سيبيل بالباب وذلك حين سمح دياغو للسيارة بأن تزداد سرعة. بدت السيارة وكأنها تقفز فوق التلال والوديان بسهولة... تسرع عبر الريف الجميل البّري الذي أحبت سيبيل منظره. كان سقف السيارة مفتوحاً، فتراقص الهواء الدافىء في شعرها ملامساً عنقها وذراعيها...

لم يتبادلا إلا القليل من الأحاديث فقد بدا لها مشغول الفكر بالمرأة التي كانت في السيارة قبلها... بماذا تناقشا يا ترى؟ كيف كانت ردة فعلها عندما أخبرها عن زواجه المزعوم؟ هل ارتابت كما كانت سيبيل متأكدة من ارتياب الجميع... فدياغو هو الروميلوس وريث البرج... ولكن هل يجرؤ أحد على القول جهراً إنه يمتع نفسه بفتاة شابه يقول إنها زوجته.

لا بد أن هناك القليل من الشك في ذهن ڤيرونيك بوجود عائق أمامها للعودة إلى قلب دياغو ومنزله. فلديها أقارب في المنطقة لا بد أخبروها عن «الفأرة الصغيرة» التي يقضي دياغو وقته معها. ولسوف تبتسم ڤيرونيك لنفسها... واثقة من جمالها الناري الذي لا تملكه إلا القلة من النسوة.

ألم يقل دياغو منذ قليل إنها ما زالت فاتنة؟

هبطت بهما السيارة نزولاً نحو ميناء بيارتيس... على جانبي الطريق محلات جذابة قديمة الطراز، وفي الهواء رائحة السمك... بينما مجموعة مراكب صغيرة تصطف عند جدار الرصيف. لاحظت سيبيل أن هذا المكان القديم قدِم الزمن لم يتغير كثيراً منذ مئات السنوات. وأحبت ما رأت وأحست بالامتنان لدياغو لأنه رافقها للغداء خارجاً. فهي بحاجة إلى وقت لتتكيف مع الجو الذي اثارته

فيرونيك في الجوار بعودتها. إن الناس دون شك سينظرون بفضول لمعرفة اتجاه الرياح، وما إذا كان هناك دخان أو كبريت في الجو... وما من شيء من هذا قد يؤثر فيها لو أحكمت الحراسة حول قلبها... ولكن في وقت ما خلال إقامتها في البرج سمحت لدياغو روميلوس بأن يفاجئها، وهي الآن غير قادرة حتى على النظر إليه دون ارتجاف وألم... وسعادة.

كان الرصيف المؤدي إلى المنزل مرصوفاً بأحجار سوداء قديمة... لنوافذه قناطر واعمدة حجرية تقسمها نصفين. قديمة، كالزمن والطقس وجرحها... بدت تماماً أنها ذلك النوع من الأمكنة التي استخدمها المهربون والقراصنة في الأيام الماضية... من الداخل لم يكن النزل مخيباً برائحة السنديان المحروق والدخان.

تقدم مالك النزل، العملاق الشديد الاسمرار يحيي دياغو، الذي قدم سيبيل، بعد المصافحة، باسمها دون أن يضيف أنها زوجته وقال مبتسماً بعد أن أجلسهما على مقعد خشبي مصنوع من السنديان أمامه طاولة من السنديان أيضاً.

- أريد أن تتعرف سيبيل إلى أفضل سمك مسلوق في كل السواحل.

- حاضر... وهل تحب السيدة الشابة أن تتذوق شراب التوت البري.

- ما رأيك سيبيل؟

- لن أقول لا.

- إذن أحضره لسيبيل، وجئني بالجعة، أما زلت تستخرجها من الخشب؟

- وهل أقدم لزبائني شيئاً ليس أصلياً سيدي؟

- أما زلت تقدم مربى التين الشهير؟

فضحك مالك النزل:



- شقيقتك كانت هنا منذ اسبوع وأكلت منه. فهي لا تستطيع مقاومة إغراءاتنا.

التفت دياغو إلى سيبيل:

- يجب أن تتذوقي منه يا عزيزتي.

- يبدو من خلال كلامكما أنه لذيذ... ويجب أن أعترف أنني جائعة.

أمعن دياغو النظر بسيبيل حتى اضطرت لمقاومة اعصابها لتسترد جأشها ثم بعد ذلك نظرت وكأنها ليست مضطربة حتى أعمق أعماق كيانها. أحست بعينيه تتأملانها وكأنه يعرف بالاضطراب في داخلها. تحملت نظراته، بجهد، فلما أعار اهتمامه إلى الطعام تنفّست الصعداء.

كان الغداء من النوع الذي لن تنساه بسرعة، وخاصة وهي تتناوله مع دياغو في نزل ضيق ضائع في الزمن. كان السمك المسلوق لذيذاً أكثر من الوصف... ثم قدم إليهما الروستو مع البطاطا المهروسة والجزر والبازيلا.

واحست سيبيل بأنها لن تتمكن من وضع لقمة اخرى، إلا أن دياغو أصرّ على أن تتذوق مربى التين، الذي أضيف إليه الكريما.

تراجعت سيبيل في مقعدها تتنهد من التخمة، فسمعت دياغو يضحك بصوت منخفض. فتمتمت:

- أنا مسرورة لأنني أسليك.

- ما زلت طفلة غافلة...

- ألأنني ما زلت أتمتع بالمباهج البسيطة؟ لقد أعجبني هذا المكان، وسأذكر هذا الغداء ما حييت.

- وهل بدأت تترقبين يوم افتراقنا!

كم آلمها أن تعترف:

- طبعاً. فلن أصدّق الخداع على الواقع. هذا رغم ظني بأن

أحداً لا يصدق زواجك... أنت «روميلوس» لذا لن يجادلك أحد فيما تقول، ولكنني متأكدة أن الجميع يعتبرني فتاة لهو.

- ولماذا قد يجد الناس صعوبة في تصديق زواجنا؟

نفث دخان سيكاره فاختفت قسمات وجهه ثم ضاع الدخان في سواد شعره. وبدا لها مرتاحاً في ما يحيط به من «نزل النورس» حيث كانت تخزن البضائع المهربة والمسلوبة بعد إفراغها خلسة في المرفأ.

هناك اناس ولدوا أصلاً في غير زمانهم... وديا غو أحدهم... وخالط تفكيرها شك في أن تكون هي واحدة أخرى...

- لماذا يجب أن يبدو مستحيلاً أن نكون رجلاً وزوجته؟

فردت بهدوء:

- بسبب الفوارق... الناس يقومون بالمقارنة. فكيف يا دياغو أقارن بثيرونيك، أو أتنافس معها؟

- تقدرين عندما تكونين أنت نفسك يا عزيزتي.

لامست شفتيها بسمة تائهة:

- هذا بالضبط الرد الذي اتوقعه من رجل.

- ما لا استطيع حياله أي شيء أنني رجل. أما زلت أخيفك؟ مع أننا تناولنا الفطور مرارا؟

- اوه... أعلم أنك تمكنت من اقناع من في منزلك باننا... ننام معاً. ولكنهم ليسوا مقتنعين بأن هذا شرعي.

- وهل تودين أن تصبحي زوجة شرعية سيبيل؟

- هذه ليست مسألة للمزاح!

- ومن يمزح؟

- لا بد أنك تمزح!

- ومن يمزح؟ هل سترمين في وجهي الآن ذلك القول بأنك لن تتزوجيني وإن كنت اخر رجل في الدنيا؟



- الزواج أمر جاد... وأنت تعرف هذا... كيف أرضى بك زوجاً وما زلت تحب ثيرونيك؟

- لقد انتهى أمرها بالنسبة لي منذ زمن بعيد. وإذا كانت هي سبب رفضك لي... فانسي أمرها.

- حقاً دياغو... أنت تتطلب مني نسيانها، وأنت من يجب أن يفعل هذا قبل أن تطلب مني الزواج منك. لقد بدأت أؤمن بأنك قد تفعل أي شيء للانتقام منها وهذا كل ما في الأمر... أليس كذلك؟

- سأنتقم... ولكن هل أنت مقتنعة بأن هذا ما أسعى إليه؟

- كل الاقتناع.

- حتى وإن كنت مستعداً حالاً للذهاب طلباً لرخصة للزواج؟

فنظرت إليه بعينين موبختين:

- توقف عن هذا دياغو!

- هل بدأت أحطم مقاومتك سيبيل؟ فكري... ستكونين سيدة منزل نبيل قديم... وسيدخل اسمك في سجلات عائلة روميلوس...

- اصمت!

لم تعد تستطيع تحمل المزيد، فقفزت واقفة وركضت خارج النزل، تقطع الطريق باتجاه المحلات المقابلة. فلم تلاحظ سيارة تستدير في تلك اللحظة من المنعطف، ومع أن السائق كبح السيارة دون تردد إلا أنها اصطدمت بها وارتمت فوق الأرض.

اختلط احساس الخوف بالألم. وجرفتها العتمة... لا يخترقها سوى صدى أصوات غير واضحة تصيح باسمها... مرتفعة ومتألمة...

- سيبيل...!

●●●

## ٩ ـ الساحرة في منزلها

خرجت سيبيل من المستشفى بعد بضعة أيام محتفظة ببضع كدمات مؤلمة، وضربة على الرأس. ولكن حالما أعلن أنها بخير جاءها دياغو بملابس نظيفة، وأعادها إلى البرج.

بينما كانا في السيارة قالت متسائلة:

ـ ما الذي جعلني اندفع أمام تلكَ السيارة؟

ولم يرد إلى أن أوقف سيارته أمام المنزل، حيث تركزت أشعة الشمس فوق أبراجه الغرانيتية... أحست سيبيل بالسعادة للعودة إلى «منزلها»... ثم أحست بدياغو يميل نحوها، فنظرت إليه وهو يتمتم:

ـ هو دون شك شيء قلته لك.

فابتسمت:

ـ وهل كان الكلام سيئاً؟ لقد كنت أبحث في ذهني لأتذكر... ماذا قلت؟

نظر إليها بدهشة... لقد أحست بتشوش في تفكيرها في اليومين الأولين اللذين أمضتهما في غرفة خاصة، حيث خدمتها ممرضة شابة... وقد ذهلت حين نوديت بالسيدة روميلوس... ولكن ما أن جاء دياغو وجلس قربها على السرير، حتى عرفت أنه زوجها... ورأت الآن تقطيبة تضم حاجبيه الأسودين.

ـ ألا تذكرين سيبيل؟



امتدت يدها لتمسك بكم قميصه ثم ترتفع إلى كتفيه:

ـ لدي... فكرة مبهمة... عن شيء له علاقة بشخص دعوته انت على العشاء... ومن الأفضل أن تخبرني ثانية دياغو. ففي هذه المرة لن أتصرف بغباء.

ـ للأمر علاقة بڤيرونيك.

راقب ردة فعلها عن كثب، وعيناه تنصبان عليها كعيني الصقر، بينما أصابعها تمسك بكتفه:

ـ ڤيرونيك؟ بالطبع! يا للسخافة كيف انسى... ولكنني تذكرت الآن. لقد غضبت لأنها كانت زوجتك السابقة، وكنت أخشى مقابلتها... هل اتهمتك بأنك ما زلت تحبها؟

ـ اجل... سيبيل.

مررت أصابعها على خده:

ـ يا عزيزي... إذن لهذا تبادلنا كلاماً قاسياً... يؤسفني تصرفي الغبي لا بد أنك غضبت مني؟

ـ بل قلقت عليك... هل أنت واثقة إنك بخير. فهذا ما أكّده الطبيب...

ـ أنا بخير تماماً... كدماتي تتلاشى، وألم رأسي سكن... لذا أردت العودة إلى المنزل... معك.

ـ صحيح؟

وبدا وكأنه يريد قول المزيد ولكنه عدل عن رأيه. فخرج من السيارة، واستدار ليساعدها على النزول... ما زالت ساقاها واهنتين. سحبت نفساً عميقاً من هواء الحقول، وضاقت عيناها لدى رؤية أبراج القصر. إنه من ذاك النوع من المنازل الذي يعيش فيه رجل مثل دياغو... عندما ادركت بألم أنه زوجها... لم يعد أي شيء آخر يهم. وعندما مال فوقها في المستشفى ليقبل جبهتها، أحست بالبهجة تملأ قلبها.

شعرت بهذا ثانية وهي تسير معه نحو الردهة الضخمة... ذات الألواح الضخمة العائدة إلى طراز قديم وذات الخشب السنديانى اللامع، والنوافذ العالية المغطاة بزجاج مرسوم عليه صور القديسين.

شخص ما كان يجلس على صندوق خشبي كبير لحفظ النفائس، تحت صورة روميلوس الأول الذي بني القصر... المرأة كانت أكثر حيوية من أن تكون شبحاً. كما أن سيبيل لم تسمع بشبح يدخن سيكارة من مبسم طويل.

سحبت الشفتان القرمزيتان الدخان، ثم نفثته ببطء. حتى ارتفع إلى الشعر الناري اللامع تحت أشعة الشمس المتسللة من النوافذ المرسومة. ساقان مديدتان تتعاقدان فوق بعضهما باغراء... وكان في نظرة المرأة راحة وثقة، جعلت سيبيل تمتعض حتى كادت تصيح: اخرجي من هنا! لم يعد هذا المكان يخصك!

ـ ڤيرونيك؟

صوت دياغو دوى ليضرب الواح الخشب فوق الرؤوس...

فوقفت ڤيرونيك برشاقة مسترخية:

ـ جئت أرحب بالعروس في بيتها... سمعت انها تعرضت لحادثة... يا عزيزتي المسكينة...

ـ إنك لجريئة حقاً!

نظرت سيبيل إلى دياغو فشاهدت أن لون شفتيه وطرفي انفه أصبح رمادياً بينما عيناه تلمعان غضباً... ربطت بسرعة ذراعها بذراعه ونظرت إلى ڤيرونيك بثبات قائلة:

ـ أنا بخير تماماً الان... كان الحادث طفيفاً. بضعة كدمات وضربة في الرأس... كان يجب أن أنظر حولي أثناء اجتياز الطريق.

سرها سماع أن صوتها غير مرتجف... أما ڤيرونيك فحركت عينيها الخضراوين صعوداً ونزولاً على جسد سيبيل النحيل:

ـ وهذا ما أنا متأكدة من أنك تفعلينه عادة... أنا واثقة أنك



عندما تضعين عينك على شيء... أو أحد... فأنت لن تقعي... إلا إذا كان السبب هو الشوق للوصول إلى هدفك... سمعت أنك كنت تعملين في باريس... صحيح؟

ـ صحيح... ولكنني بالطبع تخليت عن عملي بعد زواجي.

ـ طبعاً... فكما اذكر جيداً، أن دياغو لا يقبل أن يكون لزوجته اهتمام بأي شيء غيره. ألم تكتشفي طباعه بعد؟

فتمتمت سيبيل وهي تحس التوتر في عضلات دياغو:

ـ اكتشفتها تماماً.

فضحكت ڤيرونيك ساخرة.

ـ إنه رجل كبير على صغيرة مثلك... إنّك حلم ليلة صيف حارة... لا حلم عاطفي.

سألتها سيبيل بكل براءة:

ـ مثل قطة فوق صفيح ساخن؟

فضاقت العينان الخضراوان وأصبحتا لامعتين بينما مرّ طرف اللسان بنعومة فوق شفتي صاحبتهما المرتدية سترة من فرو قطة الوشق الوحشية المنقطة. فوق فستان عالي الياقة، ومع ذلك فهو يبرز كل حنايا جسدها الخفية. عيناها تشبهان عيني ساحر قادرتين على رمي التعاويذ على الرجال.

نظرت سيبيل إلى خصمها وهي تحس بفقر إلى الخبرة وكأنها فتاة مدرسة. حتى وجود دياغو قربها، حتى وزن خاتمه في أصبعها، لم يتمكنا من تبديد الخوف الذي امتد إليها من ڤيرونيك.

أحست بالغيرة تطعنها، حتى كادت لا تستطيع اخفاء شهقة ألم. لن تستطيع التنافس مع ذكريات دياغو عن زواجه من ڤيرونيك... ومع أن ذراعها مرتبطة بذراعه، فقد أحست بالخوف من تملص قبضتها عن قلبه. لقد تزوجها لا عن حب، بل ليشكل دفاعاً ضد هذه المرأة...

ولكن... آه... ما هذا الدفاع الواهي الذي اختاره؟

ڤيرونيك عرفت هذا... وجعلت معرفتها تظهر في عينيها.

وضعت ڤيرونيك يدها على خصرها... ولمع خاتم له جوهرة ضخمة تجاه فستانها الفاتح اللون... وقالت باغراء:

ـ كن أكثر ترحيباً يا دياغو... لقد دعوتني للعشاء... الا تذكر؟ ثم طلبت مني عدم المجيء لأن زوجتك أصيبت بحادث صغير... لماذا رمت بنفسها أمام السيارة... لست أدري؟

التفتت إلى سيبيل من خلال الدخان:

ـ خلال شهر عسلي مع دياغو... لم أكن اجري... خاصة أمام عجلات سيارة.

أحست سيبيل بكراهية تجاه هذه المرأة تتزايد وتنتشر في نفسها:

ـ لم يكن ما حدث مقصوداً.

ضغطت جسدها أكثر على دياغو. وكأنما ليعلم أنها تحس بما يشعر. ولكنه لم يتجاوب معها، بل أحست بالبرودة... وكأنه وڤيرونيك في غرفة ليس فيها أحد سواهما... فلقد شاركته الكثير الكثير... لقد بادلها الحب في منزله... وفي الحقول... ومن طبيعة البشر نسيان الألم قبل اللذة.

ردت عليها ڤيرونيك وهي تنفض رماد سيكارتها على الأرض:

ـ وهل نحن واثنون مما نفعله عادة؟ الإنسان يفعل بعض الاشياء باندفاع متهور. ثم يندم سنوات على ما فعل. ألا توافقني الرأي على هذا دياغو؟

فرد بخشونة:

ـ من طبيعة بعضهم التهور... ومن طبيعة البعض الآخر التريث.

ـ عندما تقول هذا يا حبيبي أحس بأنه امر تكرر من قبل... فهل قلته لي سابقاً؟



ـ أعتقد أنني فعلت.

ـ بالطبع فعلت... فأنت مثلي... تذكر ادق تفاصيل السنة التي عشناها معاً... سنة واحدة... ومع ذلك كان لها تأثيراً كبيراً في نفسنا.

ـ تكلمي عن نفسك ڤيرونيك... فكلانا متزوج الآن.

فهزت كتفيها وكانها لا تهتم للآخرين:

ـ صحيح... ولكن زوجي توفي... وكان له مصالح في عشرات الشركات المساهمة. لذلك لن أجوع، إلا إلى الحب. فهل تظن أنني لن أنال ما أصبو إليه؟

ـ لم أعهدك جائعة إلى الحب ڤيرونيك.

ـ أنت لم تنادني يوماً «ڤيرا» كالآخرين... أليس كذلك دياغو؟ لطالما كنت رجلاً واقعياً... وكما قلت يا حبيبي يوم التقيتك، تبدو متألقاً وبصحة ممتازة.

ـ وأنت ما زلت جميلة.

قال هذا بلهجة عادية، إلا أنها جعلت سيبيل تحس بالألم، وكأنما هي غريبة لا حق لها في هذا المنزل كما لڤيرونيك التي ملأته بوجودها الحيوي... شعرت بأنها تنكمش مبتعدة عن دياغو، تعبة منه ومن المنزل الضخم... الفارغ... البارد العالي... كما شعرت بأن سعادتها بالعودة ذابت واندثرت وأن آلام رأسها عاودتها من جديد آه. ليتها ما زالت في المستشفى تنعم بالراحة والأمان... فهي لم تتصور أنها قد تواجه ڤيرونيك وهي ضعيفة وتعبة... يا لهذه المرأة؟ لقد تزوج دياغو ثانية. ومع ذلك فهي هنا. تتصرف وكأنها ما زالت تمسك به، وكأنما سيبيل ليست بشيء أمامها.

سمعت ڤيرونيك تقول لها:

ـ تبدين ذابلة يا عزيزتي.

نظرت إليها وكأنما تتمنى ذبولها في الحال لتتمكن من مد يدها

ومخالبها القرمزية نحو دياغو. أجبرت سيبيل نفسها على دفع بعض النشاط إلى صوتها.

ـ احتاج إلى كوب من الشاي ينعشني على الأرجح. سأتناوله في غرفتي إذ ربما تحتاجان إلى الكلام معاً.

سحبت ذراعها من ذراع دياغو الذي لم يحاول منعها بل قال:

ـ أجل... اصعدي إلى غرفتك واستريحي سيبيل.

فقالت فيرونيك:

ـ سنلتقي ثانية.

فردت سيبيل.

ـ عمت مساء.

سارت نحو السلم وهي تحس بالعينين الخضراوين تحرقان ظهرها...

عندما وصلت إلى غرفتها تنهدت ثم غرقت في المقعد المريح قرب السرير الذي تصل قوائمه الأربعة حتى السقف تقريباً. ونظرت إلى الفراش الواسع... لديها إحساس بأنها شاركته مع دياغو... ولكن... هناك فراغ غريب داخلها... وكأنما الذي حدث تحت هذه الملاءات، مهما يكن، كان ينقصه الحرارة والعاطفة.

بعد وقت قصير أدخلت جيزيل الشاي والكايك قائلة:

ـ تبدين مرهقة يا سيدتي...

خلعت عن قدميها الحذاء، وأبدلتها بخف خفيف... وصبت لها فنجان شاي أضافت له ملعقتين من السكر.

ـ شكراً لك جيزيل.

ارتشفت الشاي بامتنان... فقالت جيزيل:

ـ ليس من حقها المجيء إلى هنا! لم يعد لها مكان هنا!

فابتسمت سيبيل بتعب:

ـ حاولي أن تقولي هذا لها. إنها مذهلة الجمال قادرة على فعل



ما يحلو لها للحصول على ما تريد.

ـ ولكن هذا ليس عدلاً سيدتي. المنزل منزلك لا منزلها!

ـ لست أدري!

جالت عيناها في الغرفة الكبيرة الأنيقة، النظيفة الرائحة حيث تتناهى أصوات الطيور من المروج، المنادية فوق الوزال الذهبي اللون، والصخور المستوحشة والشجيرات الصغيرة التي نقلتها الرياح... أرادت سيبيل أن تتنشق فقط رائحة المروج المنعشة، ولكن ما تزال هناك رائحة عالقة في أنفها من العنبر الذي يفوح من جسد فيرونيك...

كانت صورة فيرونيك لا تبرح خيال سيبيل، صورتها وهي في فستان يلتصق بالثنايا الناعمة، نعومة حيوانية تجذب الرجال إلى أمكنة سرية حيث يغوصون في عمق الرغبات... التي شاركها إياها دياغو... أما سيبيل فلم يحدث أن أحست بها.

بدا لها أن أجيالاً مرت قبل مجيء دياغو إلى غرفتها... كانت تعلم أنه سيجيء. وكانت تجلس على مقعد طاولة الزينة، تنظف أظافرها وتحاول أن تبدو هادئة.

شاهدت الباب عبر المرآة ينفتح. وشاهدت طيفه قبل أن يقفله، ارتعشت متوترة وهو يتقدم ليقف وراءها، حيث التقت عيناه بعينيها عبر المرآة... وتمتم:

ـ لقد تصرفت بشكل ممتاز يا عزيزتي... إنك تستحقين مكافأة على شجاعتك لكن ما أرجوه هو ألا تشعري بالارتعاش بعد مواجهتك العدو؟

جاهدت لتبدو هادئة:

ـ أشعر بأنني على ما يرام... هل وجدتما كثير من الأقوال لتبوحا بها؟

ـ كان يجب أن تبقي وتستمعي.



www.elromancia.com

ـ أعرف متى أكون عبئاً.

ـ هراء.

أطبقت يداه على كتفيها... ولكنها الآن لم تكن راغبة في أن يلمسها، فأبعدته عنها... فقال:

ـ وهل غضبت؟ أنت من تركني وحدي معها... دعيني أذكرك بهذا.

ـ لم أطق نظرتها المتملكة إليك... إنها تريد استرجاعك، ولن تتركني أقف في طريقها... لقد جعلتني أحس بأنني لا أنتمي إلى هذا المكان. وكأنها ما زالت تملك الحق في المجيء والذهاب متى شاءت. وهي تعرف أنها امرأة قادرة على السيطرة على الرجل.

ـ وأنت... ألست قادرة؟ كيف تتوقعين السيطرة على رجل إن لم تسمحي له بملامستك؟

ـ أنا... لا أهتم بالادعاء...

ـ تبدين رائعة في ثياب النوم، فلماذا أدعي؟

أعاد وضع اصابعه على كتفيها، دون أن يشدّ عليها لئلا يؤلمها. شعرت بأن لمسته تذيبها... هل تذكره يعتلي صهوة جواده، يضعها عليه ويسير بها بين العشب المرتفع... ولكن أكثر أوجه علاقتهما أهمية... لا تذكرها... بل تحيرها... يوم زفافهما... ليلة الزفاف...

أحست بالخوف لأنها نسيت أشياء حدثت قبل ذلك الحادث السخيف قرب «نزل النورس»... ولكن لو تجرأت على قول هذا لدياغو، فسيصر على عودتها إلى الطبيب. وهي لا تريد الدخول إلى المستشفى ثانية... خاصة في هذا الوقت الذي عادت فيه ڤيرونيك. عادت بكل وقاحة لتظهر في المنزل... وستعود مرة أخرى. فكرت في نفسها: أنا أحبه... ولن أتركها تؤلمه مرة أخرى!

سمعته يقول:



ـ أتريدين رؤية ما أحضرته لك؟ فلنقل إنها هدية ترحيب بعودتك.

فردت بحياء:

ـ لا أتوقع منك الهدايا.

ـ وهذا يجعل الحصول عليها جميلاً، هه؟

تحركت يده إلى جيبه، ووجد ما يبحث عنه، ووضعه على الطاولة أمامها... فحبست أنفاسها، إنه «بروش» أنيق عليه صورة فتاة.

فشهقت:

ـ اوه... لا أستطيع...

ـ بل عليك.

فالتقطت البروش ولامست وجه الفتاة باصابعها:

ـ إنه جميل حقاً! ماذا أستطيع أن أقول؟

ـ قولي هذا!

سحبها عن الكرسي وكأنها لا تزن أكثر من ثمرة تفاح. فأمسك بها بين ذراعيه وقبلها على خدها... كان في قبلته عنف لذيذ، لم ترغب في مقاومته أو السيطرة عليه. عناقه فعل بها أشياء جعلتها راغبة في أن تكون عبدة لرغباته، فالتفت ذراعاها حول عنقه، تبادله عناقاً ناعماً ينبع من صميم قلبها.

نظر إليها... ناظرا عينيه الذهبيين يلمعان خلف أهدابه السوداء كريش غراب حالك الاسوداد كشعره. وتنفس بعمق، وأحست بتحرك صدره صعوداً وهبوطاً من فوق قماش روبها الرقيق. ثم، وفجأة سحبها معه إلى السرير... ثبتت نظرها به، تراقبه وهو يفك ربطة عنقه... وتكورت اصابع قدميها على الغطاء وأحست برعشة الرغبة تسري من اصابع قدميها صعوداً، حتى جسدها.

كان الإحساس عميقاً وحميماً بحيث حبست أنفاسها... كان

يفك أزرار قميصه عندما عادت إلى التنفس... لكنه فجأة توقف... وراح يتمتم:

ـ ماذا أفعل بحق الجحيم؟

فرفعت نفسها على مرفقها ونظرت إليه حائرة:

ـ دياغو؟ ماذا دهاك؟

فقال بوحشية:

ـ أنا؟ لا استطيع مطارحتك الغرام... هذا ما دهاني؟

خرج إلى الغرفة المجاورة صافقاً الباب وراءه بقوة جعلتها تجفل. حينها ماتت رغبتها المرتجفة، تاركة فيها إحساساً بالارتعاش... فجذبت الأغطية حولها وانهمرت دموعها على وجهها.

المسألة إذن إنه لا يستطيع الإحساس نحوها بذلك الشوق المتعطش الذي تثيره فيه ڤيرونيك، وستبقى دائماً. وڤيرونيك تعرف هذا لذا رمت بعرض الحائط كل القيم والتقاليد وعادت إلى البرج لترى زوجته الجديدة. لترى جمالها... وشدة تأثيرها على رجل كان يوماً زوجها.

أحست سيبيل بإحساس حزين من الفشل... فحب رجل هو مصدر ألم أكثر منه مصدر سعادة، وذلك عندما يكون اهتمامه منصباً في اتجاه آخر. ما تعرفه جيداً أنها تحب دياغو... ولكنه لا يبادلها الحب. بعد تنهيدة قصيرة مخنوقة نزلت عن السرير وتوجهت إلى طاولة الزينة حيث البروش، فأمسكته بيدها تحس بالحب تجاهه لأنه هدية دياغو ولكنها تتوق إلى أن يهبها نفسه... كما وهب جسده بين العشب والوزال إلى ڤيرونيك وكما وهبها قلبه.

حدقت عيناها إلى باب غرفة دياغو، بلهفة تدفعها إلى الدخول ولكن الخوف من رفض آخر أعادها. لقد شاهدت الآن ڤيرونيك فباتت تفهم سبب عجزه عن نسيانها.



أحست سيبيل بالبرودة التي أحست بها وهي في الردهة عندما شاهدت ذلك الجسد المثير يجلس على الصندوق... جسد رائع للنظر... وبشرة ناعمة كأوراق الكاميليا.

«أكرهها! أكرهها وإن كان يحبها دياغو!»

اتجهت إلى الخزانة لتعلق البروش على سترتها المفضلة... حيث بدا جميلاً... إنه مكافأة على مواجهة ڤيرونيك... وهذه محنة لم تنته فصولها بعد! اعتقادها هذا أثبت صحته في الأيام التالية!

استمرت ڤيرونيك بالمجيء إلى البرج، بدعوة أو بدون دعوة، تحمل دائماً عذراً مقبولاً. مرة ادعت أنها شاهدت لوحة رائعة وتريد رأي باتروسا بها. ومرة ادعت أنها تتوق للسباحة. كانت تحمل سلة طعام رغبت في مشاطرتها مع دياغو وسيبيل عند الشاطىء.

الخطير، أن سحرها لا يقاوم... فسرعان ما تلاشى عدم ثقة باتروسا بها... ومع أن صداقتهما الجديدة بدت في السطح بريئة، إلا أن سيبيل كانت واثقة من أن ڤيرونيك تستقطب شقيقة دياغو لدعم حملتها. ومع مضي أيام الصيف بدأت سيبيل تحس بأن قبضتها عليه تفلت من يدها... فله ولباتروسا أشياء كثيرة مشتركة مع ڤيرونيك. فللثلاثة عشق قديم للمروج والبحر... وللثلاثة حب لهذه الأصقاع العميقة الجذور.

شعرت بأنها مختلفة عنهم... فمظهرها طفولي بالنسبة لمظهر ڤيرونيك، خاصة وهما في ثياب السباحة. بدت بشرتها أكثر ابيضاضاً، وعظامها أرق وقدرتها على السباحة وامتطاء الخيل أقل من براعتها.

أعطاها دياغو حصاناً اسمه «فرد» له قوائم طويلة متراقصة وطبيعة محببة. كان من أصل مولّد هجين... لا يقارن مطلقاً بجواد دياغو الأسود الجسور... ولا بذلك الجواد الجوزي الناري اللون

الذي يناسب ڤيرونيك وشعرها الأحمر. فوق صهوة الجواد، كانت ڤيرونيك متعة للنظر، تعتليه بقلة اكتراث... فكان أن انتهى بها الأمر إلى أن يرميها الجواد عن صهوته، ويحملها دياغو على جواده إلى البرج.

كاحلها التوى بشكل سيء، واستدعي الطبيب لمعالجتها... وعرفت سيبيل ما سيحدث... وحدث!

فقد أبدت ڤيرونيك أسفاً شديداً على نفسها جعل دياغو يشعر بأنه مضطر لاستضافتها حتى يشفى كاحلها.

لقد حصلت ڤيرونيك على ما تريد، وعادت إلى المنزل الذي كان يوماً لها. ووصلت خادمتها ومعها شاحنة من الثياب، وحقيبة ضخمة تحوي أدوات التجميل... أحست سيبيل بالعجز وهي تراقب وصول هذه الأغراض، حتى كادت تحزم حقائبها وترحل... فهذا أفضل لها.

بينما كانت غارقة في أفكارها رن جرس الهاتف فتقدمت إليه لترد... فإذا بصوت رجل في الطرف الآخر من الخط يقول إن اسمه بيل ثروب يتحدث بلهجة تشوبها لكنة أميركية:

ـ اسمعي... هل أتحدث مع السيدة دياغو الجديدة؟

ابتسمت سيبيل:

ـ أعتقد هذا... فأنا سيبيل... السيدة روميلوس الجديدة.

صاح بصوت ضخم مقلداً صوت اورسون وايلز:

ـ سيبيل... انه اسم مفضل لدي... كيف ترين ريفنا الجميل؟ أليس رومانسياً؟ لقد عرفت أن والدة الماركيزة من أصل فرنسي نبيل.

ـ أعتقد هذا... هل لي أن أسأل عمن ترغب في محادثته. سيد ثروب؟

ـ كل شي في أوانه... أنا الآن أتمتع بالحديث معك سيبيل... هل قال لك أحد من قبل إن لك صوتاً ساحراً، وإنه عبر



الهاتف يدغدغ الأذن؟

ـ شاركت في تمثيلية خيرية مع أميركي... كان يطري قوائم الحمار.

ـ سيبيل... لقد جرحت إحساسي. فلك حقاً صوت جميل، وهذ يعني أن شكلك رائع كصوتك... فلدياغو ذوق رفيع بالنساء... كيف حال العجوز؟

ـ لا أعتبره عجوزاً سيد ثروب... وهو بخير... هل استدعيه لك؟

ـ ليس بعد سيبيل... أظنك تعلمين أنني أعز اصدقائه؟

ـ لقد ذكرك أمامي... أجل.

ـ هل الأمور معه على ما يرام؟ لقد وصلتني الأخبار أنه تزوج مجدداً. وأحسست بالألم لأنه لم يتصل بي.

ـ كانت علاقة عاصفة.

فرد بإخلاص:

ـ ما أشد سروري! كان هذا ما كنت أتمناه له بدلاً من حبس نفسه مع الندم لأن زواجه الأول فشل. هل تعرفين شيئاً عن ڤيرونيك؟

ـ أجل... وهي الآن عندنا هنا... وقعت عن جوادها ولوت كاحلها وستبقى هنا إلى أن تشفى.

ساد صمت رهيب قطعه بصوت أجش:

ـ يا إلهي! اسمعي... سأدعو نفسي للانضمام إليكم... هل لديك مانع سيبيل؟

ـ لا... أبداً... أرجوك أن تأتي!

كان عليها أن تقابله، فقد شعرت به رفيقاً قد يساندها. إنه دون شك أحد الرجال القلائل الذين تمكنوا من الفكاك من سحر ڤيرونيك.

ـ أنا في طريقي إليكم سيبيل. قد أراك في الغد.
ـ وهل أخبر سيبيل بقدومك سيد ثروب؟
ـ لا... دعي وصولي مفاجأة للجميع. ناديني بيل.
لمّا وضع السماعة، أحست سيبيل بالدفء لأنها جدت حليفاً هو دياغو. كان في صوته ما يدل على سعادته لزواج دياغو منها ولكنه لا بد عرف أنها لن تكون نداً لڤيرونيك التي يعرفها منذ زمن طويل.
ـ من كان على الهاتف؟
أجفلت سيبيل فالتفتت لتواجه باتروسا، التي أكملت:
ـ يا إلهي! إن النظرة التي على وجهك تظهر أنه كان معجباً سرياً!
ـ بالتأكيد لا.
ـ لِمَ هذا الذنب في وجهك إذن؟ أتعرفين نحن لا نعرف عنك الكثير قبل مجيئك إلى هنا.
ـ كان لدي اصدقاء. ودودون لا يشبهون البتة أمثال ڤيرونيك.
ـ رغم ذلك أنت مجهولة لنا... والمياه الصافية تكون عميقة عادة. مع من كنت تتكلمين؟
ـ لست مضطرة لإعلامك... فلست أحد الخدم.
ـ حافظي على سريتك وتحملي النتائج.
ـ وماذا تقصدين بهذا باتي؟
ـ أقصد أنني قد أقول لدياغو إنني ضبطتك تتحدثين على الهاتف بطريقة حميمة وعندها سيسألك عن الشخص؟
ـ هل حرضتك ڤيرونيك على هذا؟
فنظرت باتروسا إلى ساعتها، وقالت لتتهرب من الرد:
ـ أتحرق شوقاً لبعض الشاي...
فقاطعتها متوترة:
ـ كلانا يعرف أنها تنوي إثارة المشاكل.



لامست باتروسا الجرح في وجهها دلالة التوتر:
ـ صحيح؟
ـ ما في داخل الإنسان أهم من خارجه.
ـ أتتكلمين عن نفسك سيبيل؟
ـ ما آمله أن أكون أكثر رقة ولطفاً منها، وأن أكون جميلة مثلها.
ـ ما يرغب فيه الرجال هو الحب لا الإشفاق... فقد سمعت...
صمتت، فتوترت سيبيل، مما سيتناهى إلى مسمعها:
ـ وماذا سمعتِ؟
ـ دياغو ينام في فراشه وحده ألم يفقد اهتمامه بك باكراً؟
ـ إنه من سوء الخلق التحدث عن عادات شقيقك؟ أراهن أنك ما كنت لتجرئي على فعله قبل مجيء ڤيرونيك إلى هنا... هل هذا ما أنت عليه جاسوسة؟ تنبش في كل شيء لحسابها؟
فاحمر وجه باتروسا... فتابعت سيبيل بهدوء:
ـ انتبهي لنفسك باتي... أنت تسمحين لشيطان رجيم بالهمس في اذنك. ولكنها لن تشكرك على قيامك بالعمل القذر لحسابها. ألا تفهمين هذا؟
ـ لا أرى أن دياغو واقع في حبك. إنه يبدو لي أحياناً بمزاج شرس، كأنه يمر بتجربة مريعة. أظنه أدرك أنه أخطأ خطأً كبيراً بشأنك... فماذا ستفعلين لهذا يا سيبيل؟
لم يكن لدى سيبيل رد جاهز على سؤال مؤلم كهذا... كانت تحس بأن دياغو بعيد عنها، فهو نادراً ما يدخل غرفتها، وإذا التقيا كانا كغريبين يعاملها بتهذيب ولطف ولكنها تريد أكثر مما يقدمه، تريد أكثر بكثير.
إنها زوجته وتريده أن يرغب فيها... في الليل أحياناً تفكر بالدخول إليه ولكن رفضه لها كان يصدها. كان يمكن لكل شيء أن

يسير بنجاح لولا عودة ڤيرونيك لتفسد حياة دياغو من جديد.
من المؤسف أن ڤيرونيك لم تكسر رقبتها بدل لوي كاحلها.

●●●



## ١٠ - براثن من حرير

أثناء وجود ڤيرونيك في المنزل، وجدت سيبيل صعوبة في إبعادها عن تفكيرها. فقد سيطرت على خادمات المنزل إضافة إلى خادمتها للعناية بها... كان كل شيء ينفذ لها، فصواني الطعام تصل إليها متى شاءت. هذا فضلاً عن التدليك، والعناية بالأظافر والتلفزيون، والهاتف الذي نقل إليها لتجري مخابرات بعيدة المدى ليس إلى باريس فقط بل إلى خارج فرنسا.

لم تكن تعبأ بأن للخدم عمل عليهم إتمامه وبأن المكالمات تكلف مبالغاً. إنها تتصرف في «البرج» وكأنها في فندق تديره.

لكن ما أثار سخطها أكثر هو تصرفات دياغو، الذي سمح لها بإفساد نظام المنزل... تاركاً لسيبيل أمر تسوية المشاكل التي قد تنتج في المطبخ عندما تكثر المطالب على فنجان قهوة للخادمات المقطوعات النفس اللواتي يسرعن في الرد على نداء غرفة المريضة.

لقد شكت في أن ڤيرونيك جميلة أفسدها الدلال، لكنها الآن أبطلت الشك باليقين، وقد شكت أيضاً في أنها تبالغ في ادعاء المرض لكنها الآن باتت أشدّ ذهولاً، لأن الطبيب خدع بأقوال ڤيرونيك فطلب منها البقاء في الفراش أسبوعاً آخر.

امتد الأسبوع أمام أنظار سيبيل فقد ملأته بخداعها... فڤيرونيك تعرف مدى قدرتها على الرجال، ودياغو دون دفاعات، لأنه يوماً لم يخرجها من قلبه. بدا لسيبيل أن زواجها منه ليس سوى

حلم غير واقعي... فهو كان يتركها وحيدة ليلاً، تاركاً إياها دون دفاع تتمسك به... ربما لا يريدها أن تكون في المنزل مع ڤيرونيك... بل ربما لم يردها إلا وسيلة للدفاع، ندم عليها بعد ذلك.

ولم تكن تجرؤ على التفكير كيف سينتهي كل هذا.

ثم وصل بيل ثروب... وأحست سيبيل ببعض التوتر يخف عندما وجدته جذاباً كما بدا لها صوته على الهاتف.

ولأنه لطيف، ولأن دياغو لم يصد ڤيرونيك وتركها تحشر نفسها في حياته، استقبلت سيبيل بيل بحرارة غير متوقعة استجاب لها فوراً.

وقف في الردهة ينظر فيما حوله قائلاً بلكنة اميركية كانت غريبة على أذني سيبيل:

ـ المرء يخطو أحياناً عبر الزمن... تبدين مرتاحة هنا سيبيل... على الأقل ظاهرياً... فهل أنت مرتاحة حقاً؟

ولم تدر بماذا ترد، ولكنه التقط ردها من صمتها، واكمل:

ـ ڤيرونيك؟ يا للجحيم... كيف سمح لهذا أن يحدث؟

لاحظت أنه يشبه دياغو... شبهاً مخادعاً ولكنه موجود... ولا بد أنه التقط فضولها من نظرتها فقال ضاحكاً:

ـ أنا ودياغو قريبان من بعيد... أنا من الجهة الخاطئة من العائلة... فتاة من عائلة روميلوس أحبت شاباً فقيراً تزوجته وهربت معه إلى اميركا... ومن سوء الحظ أن الشاب انخرط في شجار أودى بحياته طعناً بالسكين قبل أن يصلا... وكانت الشابة، وهي جدة ابي، قوية الروح استطاعت النجاح في العيش مع طفلها إلى أن تزوجت من رجل غني فبقيت في أميركا.

ـ أنت فنان كما اذكر؟

ـ أجل... وأنت؟



ـ كنت أعمل قبل زواجي من دياغو.

ـ وهل سيسمح لك بمعاودة العمل؟

ـ لم نبحث هذا الأمر.

ـ وهل تشعرين بالحاجة إلى العمل؟

ـ لن يكون الأمر عملياً، فحياة دياغو هنا ولا أظنه يرضى بحياة مزدوجة... كنت واثقة من قبل أنني سأنجح في حياتي. فلم أتصور يوماً أنني قد أتخلى عن كل شيء لأصبح زوجة.

تسللت شمس المغيب عبر النوافذ ناشرة هالة من الذهب الأحمر. ثم تعالت دقات الساعة فتنبهت سيبيل إلى واجب الضيافة. فقالت:

ـ دياغو خرج لمقابلة أحد مستأجري الأرض... أنت دون شك تتوق إلى فنجان من الشاي. أم تريد الصعود إلى غرفتك أولاً. سيد ثروب؟

ـ اسمي بيل... إذا صنعت السيدة ديسون إحدى فطائر الخوخ والتفاح مع الشاي، فخذيني إليها سيبيل.

عندما وصلا إلى غرفة الجلوس، نظر بيل فيما حوله، وتنهد سعيداً وجلس على الأريكة العريضة.

ـ ليس هناك في العالم ما يوازي قصراً عريقاً كهذا.

ـ هل تود الحليب مع الشاي سيد... بيل؟

ـ مع السكر أرجوك... ما أشد سعادتي بزواج دياغو من جديد. ليته أخبرني، لأنني كنت سأتخذ لنفسي دور أشبينه من جديد. اعتقد أن الأمر حدث فجأة؟

أعطته فنجان الشاي:

ـ أجل...

ليته لا يلح عليها لمعرفة التفاصيل... فهي لا تذكرها، وما زالت تحيرها... إنها ضائعة في ذكريات فقدتها بطريقة ما.

- كيف كانت ردة فعل باتروسا؟

ارتشفت سيبيل شيئاً من شايها وأجابت:

- وكيف تتوقعه؟ إنها متزمتة، تنظر إلي على أنني غريبة... فليس لدي جمال ڤيرونيك الأخاذ... ولا أوازي العاطفة التي ما زال يحلم بها، حسب قول باتي.

- وبماذا يحلم حسب رأيك سيبيل؟

فهزت كتفيها وقالت:

- ڤيرونيك هنا في المنزل، وأظن هذا يجيب عن سؤالك.

- ربما كان مضطراً للضيافة بعد أن وقعت في أرضه. فدياغو يلزم نفسه بواجباته فلا تقفزي إلى استنتاجات قد تؤثر في زواجكما سيبيل... فلك وجود خاص بالنسبة إليه... هل فهمت ما أقصد؟ وفي هذا المجال الخاص قد تلاحظين التغيير... لكنني لا أتصور أنك لاحظت أي تغيير.

- ولكنني لاحظت!

لاحظت ردة فعله فوراً من جموده وهو ينظر إليها.

- أنت لا تعنين...

- لقد فقد دياغو اهتمامه بي.

- هذا غير صحيح... سيبيل.

- ما كان علي أن أتزوجه... لقد أخبرني عنها، ولم يحاول إخفاء شيء. وبقي يقول إنه بحاجة لي... وقبلت. وها قد قلبت حياتي رأساً على عقب. وهذا ليس عدلاً... ليس بعد أن خططت لحياتي... فأنا بالتأكيد لم انجح في دور الزوجة!

- أيتها المسكينة، أنت في مأزق... وهل تحبينه كثيراً؟

- إذا كان الحب يؤلم... فأنا أحبه.

- إذن بالله عليك قاتلي... إياك أن تأخذه منك.

- ألا ترى... أنا لم أحصل عليه فعلاً... بينما كانت هي



طوال الوقت تستحوذ على اهتمامه. ليس معي سلاح أقاتلها به. فلدي كرامتي! ولن أرمي نفسي عليه لينظر إليّ وكأنه يريد الخلاص مني... الأمر مؤلم!

- ومع ذلك فقد تزوجك أنت... فلماذا يفعل هذا إذا كان ما تقولينه صحيحاً؟

- لقد ظن أن بإمكانه نسيان ڤيرونيك. ولكنه لم يستطع. فما إن شاهدها مجدداً حتى اختفيت من وجوده... رماني إلى الظل بينما تصدرت هي الواجهة...

فجأة انفجر الألم العميق في داخلها وانخرطت في بكاء مرير. دفنت وجهها بين يديها، فدنا منها وضمها بين ذراعيه.

- لا تبكي... إن بكيت فهذا يعني أنك استسلمت إليها... وهذا ما تسعى إليه. تريدك أن تنهاري حتى لا تقدري على الوقوف في وجهها... أنت زوجة دياغو الآن! ولك حقوق تجاوزتها... يا فتاتي، أنت لم تكوني هنا في الأيام الماضية لتعرفي ماذا فعلت به... لقد قطعت قلبه نصفين... وستمزقه إرباً هذه المرة إن استولت عليه! فتشجعي يا فتاة... فهذه ليست طريقة للتصرف! هل شاهدت أياً من لوحاتي؟ لدى دياغو بعضها.

- أجل... رأيتها وهي جميلة.

- شكراً... أظنني سأحب رسمك وأنت على شاطىء الخليج الإسباني... حيث مياه البحر تزحف إلى الرمال وراءك... أتعلمين لولا معرفتي بزواجك لما صدقت أنك زوجة مطلقاً.

- ولماذا تريد رسمي؟ فلست جميلة مثل ڤيرونيك.

- لا يا سيبيل ولكنك فتاة غافلة وهذا نادر.

- نادر؟ أنا فتاة عادية في وضع غير عادي.

- الفتيات العاديات لا يتورطن في مثل هذه الأوضاع. فلا تبخسي نفسك معها، فأنا اعتقد أنك فتاة تضحين بكل شيء في سبيل

ما تؤمنين بأنه حقك... ماذا بشأن حبك؟

ـ لست واثقة من عدة أشياء... أحاول إقناع نفسي بأنني في بيتي... ولكن كل ما أحس به أنني زائرة توشك أن تنتهي زيارتها.

ـ هراء... ڤيرونيك هي الزائرة وموعد نهاية زيارتها يوشك على الانتهاء.

ـ ولكنها لن ترحل. يجب جرّها من اذنها، وهذا لن يحدث... لقد أحضرت كل ثيابها وأغراضها... وقد ذكرت خادمتي جيزيل أن كل ثيابها معلقة في خزائن غرفة نومها... وهي تتصرف وكأنها في بيتها.

ـ وهل يعلم دياغو بما تفعل؟

ـ طبعاً!

ـ ولكن الرجال غالباً لا يلاحظون ما تلاحظه النساء.

ـ دياغو يلاحظ كل شيء له صلة بها... فعندما أراه معي حائراً، ضائعاً في أفكاره أعلم أنه يفكر بها. وعندما أنظر إليه يتجنبني. إنه دون شك آسف على زواجه مني!

فنظر إليها بيل... ومرت عدة لحظات صمت، ثم قال:

ـ إذا كان الأمر هكذا فماذا ستفعلين؟

ـ سأتركه!

ـ ولكنك تحبينه... وليس من السهل التخلي عن الحب.

ـ لن أتخلى عن حبه، سأحمل حبه معي. إنه هنا... في داخلي...

لامست صدرها... فقال بذهول:

ـ هل هو طفل يا سيبيل؟

فصاحت بسخط:

ـ ماذا تقول؟

ـ تعرفين ما أقول! إذا كانت ڤيرونيك قد أثرّت فيه من جديد،



فحاربيها بنفس قذارتها!

ـ ماذا؟ وهل أدعي أنني... حامل؟

ـ أجل... فدياغو يريد أن يرثه ابنه، وهنا نقطة ضعفه. فافعلي ما فعلته غيرك من النساء ممن كن في موقفك. تظاهري بأنك حامل...

ـ لا أستطيع... مستحيل!

ـ أتفضلين أن تأخذه منك؟

ـ لا!

ـ إذن ما الخطأ في خدعة صغيرة إذا كانت على المدى الطويل تصب في مصلحته؟

وتمتمت:

ـ خدعه؟

أحست بقشعريرة تسري في أوصالها، من مؤخرة عنقها حتى أسفل ظهرها:

ـ لن أقدر على خداعه، فأخشى أن يكتشفها... ولن يسامحني عندها أبداً!

ـ ولكن ڤيرونيك فعلت أسوأ من هذا به.

ـ إنه يحبها... ولم يتوقف عن حبها... في حين أنا بالنسبة إليه لا شيء. مشاعره نحوي تلاشت.

ـ لا تستسلمي يا فتاتي لليأس.

ولم تدر بما تجيب، ولكنها أحست بأنه صادق مخلص. وأحست بالراحة لكلامه... في هذه اللحظة انقسمت حطبة في الموقد بصوت مرتفع وأرسلت شراراتها إلى المدخنة. وحدق بيل إلى النار قائلاً:

ـ عندما أنظر إلى النار، أتذكر ڤيرونيك، ومنظرها الشبيه بساحرة النيران وأتذكر أيضاً تلك الليلة التي تزوجت فيها دياغو... لقد

شاهدت بوضوح ما يختبىء وراء ذلك الجمال الجسدي... ولكن كان الأوان قد فات، وتزوجها، ومن المؤسف أن يكون الزواج قد انقلب في الطريق السيء... سيبيل... أنت مختلفة... فتمسكي به يا صغيرة... لأجله هو!

فتمتمت:

- وماذا عني؟

- وهل ستتخلين عن كل شيء...

- أجل... لأنني لا أذكر أنني قطعت له الوعد المقدس.

شرحت له ما حصل عند الميناء وكيف صدمتها السيارة... فقال:

- وإن يكن؟ فالمتزوجون عادة يتخاصمون ثم يتمتعون بالصلح... تقولين إنه حصل لك ارتجاج في الرأس؟

- ارتجاج طفيف ولكنه أفقدني بعض ذكرياتي. فأنا لا أذكر ما كنت أرتديه يوم الزفاف ولا أذكر ما قلته يومذاك... قد تعود ذاكرتي إليّ يوماً... ولكن في الوقت الراهن... لا أذكر.

ساعدها الكلام معه، ولكن لم يحلّ أي شيء حقاً. كيف لها أن تصف مشاعرها الحقيقية عندما ينظر إليها دياغو تلك النظرة المتباعدة، بلطف مؤدب ويتركها متجهاً إلى غرفته.

لو... وخفق قلبها بشدة... كانت لديها الشجاعة الكافية لتتظاهر بأنها تحمل طفله...! عندها سيرغب فيها... لن يدع ڤيرونيك تقف في وجه طفله... اوه... يا إلهي... ما أروع أن تهبه طفلاً في حين سلبته منه ڤيرونيك!

التفتت إلى بيل:

- بيل... أنت تشجعني على أن أكون شريرة...

- لن تكوني شريرة والشيطان نفسه يقدم إليك مفتاح صندوق الآثام. ولن تكوني الفتاة الأولى التي تسترد زوجها بهذه الطريقة...



ألا يستحق دياغو كذبة كهذه؟

فحبست أنفاسها وهي تفكر فيه... في الرجل الضخم الأسمر، ذي اليدين الخشنتين اللتين تتصورهما تمران فوق بشرتها، فتذيبانها. قالت بهمس:

- بلى... اوه... بلى!

- إذن نفذي!

- وهل أجرؤ؟

- لقد تجرأت على الزواج منه.

هذا صحيح... فأنا زوجة دياغو... وليس تلك المرأة الملفوفة القدم المستريحة فوق الوسائد، في غلالة نومها الشفافة المفتوحة الياقة التي تكشف بها عن صدرها. تفوح منها رائحة المسك والعنبر كغمامة حولها، بينما ينتشر شعرها الناري كهالة نحاسية حول رأسها.

الكراهية تصاعدت في نفس سيبيل، إلى أن أحست بها تكاد تخنقها... أجل... إنها مدينة لنفسها بأن تقاتل... إنها تحب دياغو لنفسه ولا تسعى لاستعباده بجمال جسدها... صحيح أنها لا تماثل ڤيرونيك بجمال جسدها وخبرتها. ولكن كما قال بيل: لا شيء يمنعها من استخدام وسائل مخادعة.

انضمت يدا سيبيل في حجرها... هل ستجرؤ على القول لدياغو إنها تحمل طفله في أحشائها؟

تقلصت أعصابها في داخلها... وشعرت بالرعب فإن أقنعته بحملها، عليها العمل لتصبح الكذبة حقيقة.

- بيل...؟

دخل دياغو في تلك اللحظة الغرفة. ثم وقف مذهولاً لرؤية أعز الأصدقاء.

- لقد ظننت أن تلك الحقيبة حقيبة أخرى لڤيرونيك!

توقف صوته وكأنه اصطدم بوجود بيل...

شعرت سيبيل بالذنب. إن هذين الرجلين متشابهان... ولكنها تعلم جيداً أنهما مختلفان جداً في الطباع والعاطفة... فدياغو تتحكم به عواطفه بشكل أعمق من بيل. وفي الوقت نفسه لديه المقدرة على السيطرة على تلك العواطف.

حرّك حب كبير قلب سيبيل... فعلمت عندها بالذات أنها قد تتخلى عن روحها في سبيل محبة دياغو لها... أحست بألم وغضب أن تكون ڤيرونيك تسعى إليه ثانية...

«سأقتلها أولاً!»... فكرت في الحل الذي أشار إليه نيل... ستكذب لئلا ترى تلك المرأة من جديد تتربع في قلب دياغو ومنزله! «إنه لي...!» هزت رأسها بقسوة «لي!».

والتقت بعيني دياغو، ولم يكن لديها فكرة أن عينيها أصبحتا بلون الزمرد من تصارع الأفكار في رأسها...

تصافح الرجلان، بينما استدعت سيبيل الخادمة لتجلب لهما القهوة... وجلس دياغو ثم مرر يده على شعره... وابتسم:

- بيل... ما أروع أن أراك من جديد... كان عليّ الذهاب لتسوية خلاف مع مستأجر. أنت تعرف لازاروس العجوز مستأجر المنزل الحجري في المزرعة البعيدة... إنه مستأجر قديم... كان العجوز يستخدم قصعة صينية قديمة ليشرب منها الكلاب عندما وقعت عينا كاهن المنطقة عليها وقد جاء يجمع بعض الأشياء لمبيعات خيرية واعطاه لازاروس القطعة... ولكن يبدو أن الكاهن عرف قيمتها الحقيقية فنظفها جيدا ثم سأل بائع الأثريات عن ثمنها فذكر الأخير أنها ثمينة تساوي مبلغاً محترماً من المال. وما إن علم لازاروس بذلك حتى طالب بالقطعة، ولكن الكاهن رفض متذرعاً بأنه اشتراها ودفع ثمنها. فلجأ العجوز إليّ للتحكيم... فحكمت أنّ يتشاركا فيها مناصفة وسيستخدم العجوز لازاروس حصته لزيارة ابنته



التي تعمل مربية أطفال في بلجيكا.

ارتسمت ابتسامة على وجه دياغو.

- لقد تمتعت بوقتي...

وصلت القهوة... فاستغرق الرجلان في الحديث... فتسللت سيبيل من الغرفة... إنها بحاجة للتخطيط وللشجاعة لتنفذ مخططها.

ازدادت قوة عزيمتها عندما مرت أمام غرفة الضيوف الكبيرة، التي سمعت من خلال بابها صوت ڤيرونيك وهو يصدر الأوامر لخادمتها بلهجة تنم عن عجرفة وإهانة.

- أيتها الفتاة الحمقاء... الحرير لا يغسل بالماء الحار... بل بالفاتر... انظري ماذا فعلت بثيابي الداخلية... هل اعتقدت أنني سأعطيك إياها إن فسدت.

تبع تلك الكلمات صوت تمزيق القطعة لئلا تعطيها للخادمة. ووقفت سيبيل مترددة في الممر، أرادت أن تقتحم الغرفة وتقول لڤيرونيك إنها عاهرة، وان عليها أن توضب حقائبها وتخرج من المنزل. ولكنها سمعت ڤيرونيك تكمل:

- اغربي عن وجهي الآن... سأنام حتى السادسة لأستحم، وسأنزل لتناول العشاء... سأرتدي ثوبي العاجي اللون المزين باللؤلؤ الأسود.

- ولكن... لن تستطيعي السير على كاحلك المصاب سيدتي!

- سأنزل محمولة على ذراعين قويين، كنت متزوجة من صاحبهما... الذي طالما حملني.

كان المعنى واضحاً أمام سيبيل، التي هربت لتبتعد عما تسمع... ليس هناك من مهرب مما يجب أن تفعله لانقاذ دياغو من براثن ڤيرونيك.

●●●

## ١١ ـ ضحكات حبي

الفستان الحريري الجميل، المتموج بين خضرة لون البحر وزرقته كظلال عالقة، الشعر لامع كبريق مشع. البشرة والشفتان مزينتان كلوحة فنية. أما القدمان فيكسوهما حذاء فضي عال.

جعلت سيبيل نفسها تبدو متألقة قدر المستطاع. ذلك المساء وقفت قرب نافذة في الرواق العلوي، تستجمع جأشها لتنزل إلى غرفة الاستقبال. وتنشقت الهواء النقي القادم من الحقول عبر النافذة، وأحست في ذلك الهواء رائحة البحر اللاذعة.

فوق قمة بروج القصر وسقفه المثلث الشكل كان يرتفع قوس خفيف للقمر الجديد... فتمنت أمنية في تلك اللحظة... وتوسلت إلى سحرة القمر أن يساعدوها على تحقيقها.

كانت مستغرقة في أفكارها إلى درجة جعلتها تقفز مذعورة عندما لامست يد ذراعها. التفتت فوجدت دياغو قربها. طويلاً، ومؤثراً في بذلته السوداء... وقفت جامدة، غير قادرة حتى على الابتسام بينما عيناه تجوبان فوق جسدها... ثم تمتم:

ـ تبدين مميزة! لم أشاهد هذا الفستان من قبل... هو ليس مما اشتريته؟

فهزت رأسها:

ـ إنه ثوبي الخاص للاحتفالات... هل يعجبك؟

ـ إنه رائع عليك.



ـ شكراً.

ـ وهل هو لتكريم بيل؟ لاحظت أنك اتفقت جيداً معه، ولكن يبدو أن معظم النساء يعجبن به. إنه يغازلهن جميعاً ولا يتزوج أيا منهن.

ـ لأنه حكيم ربما.

ـ وهل تعتقدين أن الزواج ليس بالأمر الحكيم؟

ـ ألا تظنه كذلك؟

حتى وهي تنتعل حذاء عالياً كان عليها أن ترفع رأسها إليه، عيناه كأنهما كالذهب لمعاناً. قسماته متجهمة ومتباعدة. حتى وهي تنظر إليه أحست بحواجز بينهما، تزداد مع الوقت قساوة... ليس من الصواب أن تكون هذه الحواجز حيث هي، خاصة بين شخصين هما زوج وزوجته.

أحست برغبة عارمة، في أن يحتويها بين ذراعيه ليسحقها في ثوبها الحريري فوق جسده القاسي الدافىء... ولكنه لم يُظهر نية في الدنو منها... وهي تعرف السبب... إنه يريد تكثيف الحواجز بينهما لأن الحواجز بينه وبين ڤيرونيك أخذت تتحطم.

ـ سيدي!

التفت دياغو لينظر إلى خادمة ڤيرونيك.

ـ سيدتي تود العشاء مع العائلة سيدي... وتسألك إذا كنت قادراً على حملها إلى الأسفل؟

نظرت سيبيل إلى وجهه لترى ردة فعله... ولكنها لم تجد في وجهه بارقة تدل على التوق لتنفيذ ما تريده ڤيرونيك.

ـ حسناً (قال بأدب). سأحضر إليها بعد لحظات.

ابتعدت الخادمة. وعندما نظر إلى سيبيل قال:

ـ انزلي إلى غرفة الاستقبال وتناولي شراباً... فأنا واثق أن بيل سيكون مسروراً بتسليتك.

ـ تماماً كما ستكون ڤيرونيك مسرورة بتسليتك؟

فرد بهدوء:

ـ إنها ضيفة هنا. وعائلة روميلوس تقوم بما في وسعها لتلبية رغبات الضيوف.

أحست بالرجفة تجتاحها... قالت بصوت مهتز:

ـ وأنا متأكدة أنك ستبذل جهدك لهذا.

فانحنى نحوها وقد اتسعت فتحتا انفه بتوتر:

ـ لا تدفعيني إلى الحافة سيبيل... فسيطرتي على أعصابي ليست مطلقة.

ـ عن أية حافّة تتكلم؟

ـ ألا تعلمين؟

خفق قلبها... أجل... إنها تعلم... تعلم أنه معلق عند حافة الوقوع في حبائل ڤيرونيك بالقسوة نفسها التي وقع فيها منذ زمان طويل... قبل أن تلتقي هي به في ليلة ظلماء... في الحقول.

ـ من الأفضل إذن أن لا تتركها منتظرة!

وحاولت أن تخطو لتتجاوزه... ولكنه بقي ليسد عليها الطريق... فشعرت بالتهديد المتطاير من عينيه... شيء ما تحرك مشتعلاً في دمها... وصاح بها صوت خفي... الآن... قوليها الآن!

خفق قلبها وهي تقول:

ـ بما أن الوقت مناسب الآن... فمن الأفضل أن أخبرك أنني انتظر طفلاً.

كان صمته كصمت العاصفة... فأحست معه بأنها ترتجف من قمة رأسها حتى أخمص قدميها... ثم اندفعت تتجاوزه تنزل السلم بسرعة لتصل إلى الردهة وكأنها طارت فوق الدرجات راكضة نحو



غرفة الاستقبال، دون أن تنظر خلفها، رغم إحساسها به يقف في مكانه جامداً مصعوقاً.

لم تخطط إلى قذف الخبر في وجهه قذفاً كما فعلت الآن، بل كانت تخطط إلى إخباره في غرفة النوم، حيث الأضواء ناعمة، والمسرح معد لها لترمي نفسها بين ذراعيه، كي تسهل عليها اقناعه بأن الزيف أصبح واضحاً.

دخلت سيبيل غرفة الاستقبال، فوجدت باتروسا تلعب الشطرنج مع بيل الذي طالعها بابتسامة ردتها بأخرى قبل أن تريح ركبتيها المرتجفتين على مقعد... لقد تم لها الأمر... ورمت بقنبلتها على آمال ڤيرونيك وما تبقى الآن هو بين يدي دياغو ليقرر ما إذا كانت جاذبية امرأة أقوى من رغبته في حمل وريث روميلوس بين ذراعيه.

سمعت باتروسا تقول:

ـ صبي لنفسك بعض شراب الكرز... قال لي بيل إنه هو من كان يكلمك على الهاتف... لماذا لم تخبريني؟

فرد بيل:

ـ أردت مفاجأتك... ابعدي البيدق قبل أن أستولي عليه.

ـ بإمكانك الاستيلاء عليّ متى شئت يا بيل.

ـ لا تغريني... خاصة أنك الليلة ترتدين فستاناً رائعاً بدلاً من سروال الخيل. لماذا كل هذا التألق الذي يبدو عليكما؟

قالت باتروسا ضاحكة:

ـ لك أن تحزر!

ـ أظن أن أحد الآلهة سيتعشى معنا... وانتما تريدان التنافس... هكذا هو الأمر؟

فاستدارت باتروسا إلى سيبيل:

ـ أهكذا هو الأمر سيبيل؟ يا إلهي... لقد قمت بجهد للتألق!

فاحمر وجه سيبيل... واحست بالحرارة.

ـ اوه... إنه ثوب قديم... كنت أملكه منذ زمن بعيد.

نفضت تنورة الفستان، فلم تلاحظ أن أحد طرفيه قد اقترب من النار. قال بيل:

ـ لونه يلائمك تماماً... هل تريدين شراب الكرز؟

ـ أرجوك.

ورفع بيل كأسه بعد أن اعطاها كأسها وقال مرحاً:

ـ نخب حظي الكبير... صحبة فتاتين جذابتين... هذه هي نظرتي إلى الفتاة.

فقالت باتروسا بإغراء:

ـ ألن تكون صحبة فتاة عزباء أفضل لك؟

كانت ترتدي ثوباً أسود ذا كمين شفافين، وكانت قد سرحت شعرها الأسود إلى الوراء ووضعت فيه مشطاً اسبانياً... وإذا كان في عائلة روميلوس دم اسباني فهو يظهر بكل تأكيد في باتروسا... أحست سيبيل بأن شقيقة دياغو منجذبة إلى نيل، مع أنها لا تعرف ماذا تفعل، فهو صديق أخيها منذ زمن بعيد ولا تدري ما إذا كانت يجب أن تعامله معاملة الأخ.

أشفقت عليها سيبيل فباتروسا قادرة على التعاطي مع أشرس أنواع الجياد... ولكن التعامل مع رجل أمر أكثر تعقيداً.

سمعت باتروسا تكمل حديثها السابق:

ـ أم تظن أن في الكثير الأمان؟

فابتسم بيل... ونظر إلى شرابه الأحمر، وأجاب:

ـ معظم الرجال يا باتي، يشبهون النحل... انهم يرتشفون رحيق كل زهرة تسمح لهم بهذا. وبالطبع عندما ينجذب النحل إلى زهرة محددة، يرغب في ملازمتها، وعندها لن يجد السعادة في التنقل... أليست الطبيعة غريبة ومرعبة؟

نظرت إليه باتروسا بعينين مسحورتين سوداوين:



ـ لو لم تكن رساماً يا بيل لكنت شاعراً.

ـ لغة الحب، لغة تموت اليوم... ففي ما مضى كان لكلمة حب معنى... ولكنه اليوم أصبح مرادفاً للجنس.

أجفلت سيبيل، هل صحيح أن الجنس غدا أهم من الحب اليوم؟ إنها تعلم أن نظرة دياغو إليها تجعل قلبها يخفق بسرعة، ولكنها كذلك تشعر بلهفة إلى الاعتناء به، وإلى منع الأذى عنه، صاحت:

ـ لا تقل هذا عن الحب! فماذا تساوي الدنيا دون حب؟ إنه دافعنا إلى الحياة؟ كنت في الماضي أظنها مجرد كلمة في أغنية... كلمة يستخدمها الرجل ليجذب الفتاة إليه. ولكنني لم أعد أظن هذا. فالحب موجود وبإمكانك الإحساس به عند تلمس شخصاً تحبه!

ـ أنت محقة سيبيل... ولكن ما يحدث هذه الأيام أن الناس يرفضون إعطاء أنفسهم كل أنفسهم فهم يعطون أجسادهم فقط بينما يبقون ارواحهم في ثلاجة، وهذه الثلاجة تقتل الحب... وهنا يقع الأسف.

فقالت باتروسا:

ـ أنت ترعبني بكلامك هذا.

جلست سيبيل تحدق إلى خاتم الزواج في أصبعها... فتاقت إلى اقتحام السد الفكري الذي يمنعها من تذكر ما أحست به وتاقت إلى أن تعرف إن كان هناك في عيني دياغو تلك الليلة دفء بدل هذا البرود المتجمد.

ماذا جرى بينهما ليلة الزفاف... أكان بينهما حنان ثم حب جامح، أطاح بتفكيرها بعيداً عن جسدها بحيث لم يبق فيه سوى حب دياغو...

بينما كانت تسعى للرد على تساؤلها... دخل دياغو غرفة الاستقبال يحمل ڤيرونيك بين ذراعيه... كانت صورة حية قاسية

دخلت كالسكين إلى قلب سيبيل... الذراعان الجميلتان تلتفان حول عنقه والرأس الناري يقبع على كتفه حيث تلمع عيناها... ثم لم يلبث أن دوى صوتها.

- يا أحبائي...! انظروا إلي... ألست شجاعة؟ لم استطع تحمل البقاء وحدي وانتم مجتمعون هنا... أليس دياغو قوياً... ولكنك كنت دائماً قوياً... أليس كذلك حبيبي؟

تقدم يحملها إلى مقعد طويل لكن حين أنزلها بقيت ذراعها حول عنقه... الغطرسة والوقاحة تطل من كل حركاتها... فلم تستطع سيبيل التحمل. خاصة بعد أن شاهدت طرف لسان ڤيرونيك يمر حول شفتيها الحمراوين... فبدت فاسقة مثيرة كرسومات «روبن» العارية.

وغاصت في المقعد، فاستقام دياغو ليصلح ربطة عنقه، والتفتت إلى بيل:

- مرحباً بيل... أنا أدعى الآن ڤيرونيك سيدة عزبة بوردي... ألا يبدو هذا لقباً عظيماً؟

رد عليها ساخراً:

- لم يقل لي أحد إنك الآن أرملة طروب.

- أجل... هكذا أصبحت، وهذا رائع.

نظرت سيبيل إلى دياغو الذي يدير ظهره إليها، وكأنه يتجاهلها. وقدم بيل لڤيرونيك كأس شراب:

- وكيف مات... هل سمحت له؟

فضحكت:

- بيل... حقاً! لقد مات لأسباب طبيعية.

- وهل أرهقته يا حبيبتي؟

- بإمكانك قول هذا... كان المسكين يعمل جاهداً... في تلك المؤسسات.



ثم التفتت إلى دياغو وراحت عيناها تهبط وتعلو فوق جسده... فأحست سيبيل بأن عليها الهروب من هذه الغرفة... إذ لم تعد تطيق منظر أو رائحة هذه المرأة. فقفزت واقفة، ولكنها أثناء وقوفها طارت شرارة من النار فحطت على طرف ثوبها الذي اقترب من النار في وقت سابق دون أن تنتبه. فشبت النار في الفستان وتعالى الصراخ... ولكن ليس من سيبيل... بل من باتروسا...

- يا إلهي!... احذري يا سيبيل.

أجفل دياغو... ونظر... ثم قفز، وفي الوقت نفسه جرّ غطاء البيانو الثقيل، وراح يضرب سيبيل به إلى أن انطفأت النار بعد أن التهمت جزءاً من الحرير، لكنها تأذت من ضربه أكثر مما تأذت من النار... وتحركه السريع منع عنها الحريق... ولكن لم يمنع عنها الصدمة.

صاح بها:

- أيتها الحمقاء اللعينة! لماذا جلست قرب النار هكذا؟

- ر... ربما لاتدفأ! فكل... كل ما.. ما أحصل عليه منك هو البرود! ليتني لم التقِ بك... بل ليتني لم أتزوجك.

كانت تحس حتى وهي تتفوه بالكلمات بزيفها... فاقترابها من الخطر أطلق في ذهنها الحقيقة كشعلة تعمي البصر... فيها خطر ألسنة النار نفسها وهي تلتهم فستانها. وارتجفت فالحقيقة صدمتها... إنها ودياغو لم يمرا بمراسم زفاف معاً... كل ما جرى كان مزيفاً لخداع ڤيرونيك... لم يكونا يوماً زوجاً وزوجته... وهي... بكل جهلها... قالت له إنها تحمل طفله.

علمت أن لونها ابيضّ من الشحوب واحست وكأنما طرحت في مستنقع...

في هذه اللحظة تعالى صوت ڤيرونيك ضاحكاً وكأنها شاهدت مشهداً مضحكاً «أليس من الأفضل أن ترحل، على بقائها حملاً

ثقيلاً».

عمَّ الصمت بأثر كلماتها تلك، ثم هب دياغو غاضباً كالعاصفة نظر إلى ڤيرونيك قائلاً بحدة قاطعة:

ـ ذقت الأمرين منك! لقد ضقت ذرعاً بك!... ابعدي نفسك عن منزلي هذا أول ما عليك فعله في الصباح... وإذا كنت تحبين المحافظة على عنقك فلا تظهري نفسك أمامي ثانية! سأقتلك إن فعلت! وسأنهي ما كان يجب أن أفعله بك!

أحست سيبيل وكأنها تسمع كلماته وهي في سبات اللاوعي فدخلت الكلمات ذهنها وخرجت منه... وكانت ساقاها قد بدأتا تتلاشيان من تحتها عندما رفعها دياغو عن الأرض يحملها بين ذراعيه... أمام ناظري ڤيرونيك... وأمام أنظار شقيقته... وصديقه... الذي عرف حقيقة ڤيرونيك منذ سنوات بعيدة في وقت كان دياغو معمي بسحر جمالها.

ولكنه لم يعد أعمى... كان ينظر إلى سيبيل وعيناه كالذهب الخام، في إطار من نار لم ترد له أن يخبو... ابداً. نظر حوله في الغرفة حيث تجلس ڤيرونيك كتمثال رخام:

ـ أترين هذه الفتاة...؟ إنها تساوي مئة من مثيلاتك ڤيرونيك... وكل ما أرجوه من الله أن أكون جديراً بها.

فردت ڤيرونيك بوقاحة:

ـ أنت كنز من المال لها.

ـ اذهبي إلى الجحيم!

كان كلامه مهيناً بقدر ما في الاهانات من وحشية... ثم خرج من الغرفة حاملاً سيبيل، وعبر الردهة ثم صعد السلم الخشبي الأسود.

واسترخت سيبيل بين ذراعيه... وتلاشى كل ألمها لتحل محله السعادة... لقد قال لڤيرونيك أن تذهب إلى الجحيم... وكان



على وجهه نظرة تقول لها إنه يحملها الآن إلى الجنة.

ـ أنت محتالة لعينة... لقد كدت أقفز رعباً عندما اختلقت تلك الرواية عن... طفل... فما الخطب؟

دفنت رأسها في كتفه:

ـ كنت أظننا زوجين حقاً... وكنت خائفة حتى الموت من عودتك إليها...

قال لها بصوت مليء بالألم:

ـ كيف بالله عليك اعتقدت ذلك؟

ـ كنت تتصرف... ببرود نحوي... وأبعدتني عنك...

ـ صحيح... لأنك كنت تظنين أننا حقاً متزوجان. ولو كنا كذلك يا فتاتي، لما تركتك تنامين وحدك في ذلك السرير الكبير... ولما صددتك!

تأوه... ثم ضمها إلى صدره حتى شهقت من الألم.

ـ كيف أعبّر... كيف أعبّر لك عن مدى حبي؟ مشاعري أعمق من أي كلمات... أنا لست كبيل الذي يستخدم الكلمات بسهولة.

ـ استمر في الكلام يا دياغو... أنا منسجمة مع ما تحاول قوله... فقله!

ـ عندما يكون الرجل يافعاً لا يكون في قلبه مكان للرومانسية... كل ما يحسّه تجاه المرأة هو الرغبة، وما أن يكتفي يموت كل شيء اخر وڤيرونيك حطمت كل مشاعري... ثم جئت أنت وبدأت الورود تتفتح من جديد أمامي... حتى باتت تغرقني كلما دنوت مني.

وفتح أحد الأبواب... فأرسل نور المصباح الصغير قرب السرير شعاعه الأصفر، وأوقفها على البساط قرب السرير، وابتسمت له بحياء فتاة سكرت بخمرة الحب.

ورفعت نظرها إلى دياغو، وقلبها يضج بالرغبة وأحست بالدم

الزائد الذي يضخه يطفو إلى فوق حتى أن احمراره ظهر في عينيها... وقالت بنعومة:

ـ أحبك!

واقشعر جسدها وهو يمرر يديه ليداعبها ويشدها إليه. معانقاً بجنون واهتياج... وكأنهما يكتشفان ماذا يعني الحب.

الحب هو شخصان لا يمكن أن يعيشا مفترقين.

الحب هو اكتشاف أن وحشة الوحدة انتهت.

وانهما من الآن فصاعداً سيتشاركان السعادة معاً...

كانت جدة سيبيل تقول لها بحكمة:

ـ أحبي الرجل وسيبادلك هو الحب أيضاً.

وضع دياغو يداه حول وجهها، ونظر في عمق عينيها:

ـ سيبيل... سيبيل... أعلم أنك تحبين العمل... ولكنني لن استطيع مشاركتك في هذا... أتمانعين يا فتاتي الحبيبة؟

فهزت رأسها:

ـ أيام حبي للعمل ولت إلى غير رجعة... ولا أريد مشاركتك سوى... ربما...

وارتفع لون أحمر وحشي إلى خديها وهي تردف:

ـ أنت تعرف ما أعني...؟

ـ أعلم وسنسميه على اسم القديس دومنيك. أيعجبك هذا...

ـ أو ستكون دوميني!

ـ وسيكون هناك الكثير من الضحك والفرحة في هذا المنزل... وسيكون ذلك صدى لضحكات حبي.

●●●